المجلد السادس عشر　　١٩٤١، ١٣٦٠　　الجزء التاسع والعاشر

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٤١ م

رمضان وشوال سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً	في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري وفي جميع الاقطار ٤٠٠ 〃 〃

مطبعة الترقي بدمشق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ابن حزم في (سير النبلاء)

« نشرت كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) في ربيع الأول سنة ١٣٥٩ ﻫ [ايار ١٩٤٠ م] وكنت نشرت منه قبل ذلك فصلاً في مجلة الثقافة المصرية وآخر في مجلة التمدن الاسلامي الدمشقية ، ثم تلقيت بالبريد المضمون آخر عام ١٣٥٩ ﻫ مغلفاً فيه رسالة خطية عنوانها : « ترجمة ابن حزم رحمه الله ، منقول من النبلاء للذهبي » وكلاماً آخر عرفت منه ان في خزانة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين صاحب اليمن نسخة من كتاب النبلاء بصنعاء ، وان وجيه الحجاز الشيخ محمد نصيف لما علم باشتغالي بدراسة الامام ابن حزم حملته اريحيته، ونبله فكلف السيد محمد بن احمد الحجري بنسخ ترجمة ابن حزم من النبلاء ثم أوصلها الي .

والرسالة المهداة كتاب مستقل كما الفه الذهبي وقد قرئ عليه وفي آخره سماعان احدهما بخطه كتبه بدمشق سنة ٧٣٤ والثاني كتبه بدمشق ايضاً ابن جماعة سنة ٧٤٠ه فرأيت من الواجب — وللرسالة هذا الخطر — ألا أستأثر بها وان انشرها في مجلة المجمع العلمي العربي تعميماً لفائدتها .

وانا اذ أشكر فضل الشيخ محمد نصيف وغيرته على العلم لا يسعني إلا ان ارفع الى صاحب الجلالة اليمنية على صفحات هذه المجلة رجائي ورجاء كثير من خدمة العلم : ان يأمر بطبع هذا الكتاب النفيس فيبرد بذلك غلة العطاش من رواد العلم ويحبي أثراً نفيساً ويضيف الى آثره الجليلة هذه المحمدة الجديدة ، ويحقق امنية ليس احق بتحقيقها من الملك العالم المجتهد الفقيه . ودمشق تغتبط اذا امر جلالته فأرسل هذه النسخة النادرة الحلاة بخط مؤلفها ، الى مجمعنا العلمي فيقوم باعدادها للنشر ، ومن الحق ان تقوم دمشق بنشر أثر خرج من خزائنها وألفه في مدارسها ابنها وأحد مفاخرها الخالدة على وجه الدهر »

وهذه كلمة عن المؤلف الامام الذهبي وعن كتابه سير النبلاء أقدمها بين يدي الرسالة :

شهد القرن الثامن للهجرة علماء محدثين وحفاظاً أعلاماً ، استأثر بالاجماع منهم أربعة كان اليهم المرجع ، وعليهم المعول ، وانعقدت لهم الامامة في الحديث ومعرفة الرجال : وهم الحافظ المزي والبرزالي وتقي الدين السبكي ومترجمنا شمس الدين الذهبي .
وقد كان مترجموه من جلة العلماء كتاج الدين السبكي والجلال السيوطي والحافظ ابي المحاسن الحسيني الدمشقي وصاحب (فوات الوفيات) وخليل ابن ايبك الصفدي صاحب (نكت الهميان في نكت العميان) وغيرهم ، فأطبقوا جميعاً على أنه حافظ

عصره الذي تشد اليه الرحال من مختلف الاقطار . وناهيك بشهادة هؤلاء الحفاظ المحدثين الأجلاء .

مولده ونسبه

كان مولد شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني بدمشق سنة ٦٧٣ واصله من ميافارقين واشتهر بالذهبي [١] ونعته الحافظ الحسيني بـ « شيخ المحدثين قدوة الحفاظ والقراء محدث الشام ومؤرخه ومفيده » [١]

طلبه ونبوغه

بدأ بطلب الحديث وله ثمان عشرة سنة ، فسمع على شيوخ الشام ومصر ومنهم شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وكان هذا « شديد التحري في الإسماع [٢] » لم يقبله حتى اختبره في معرفة الرجال وسأله اشياء اجابه عنها بسداد . ثم جاب مدن الشام يلقى فيها الشيوخ فسمع بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة والقدس ورحل الى الاسكندرية وبلبيس والقاهرة ومكة [٢] حتى صار « إمام الوجود حفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل [٣] » فرسخت قدمه وذاعت شهرته وضرب بحفظه المثل .

وأقام بدمشق يقصده فيها العلماء من طلاب الحديث من كل قطر ومصر وتنهال عليه الأسئلة من البلدان فيجيب عليها من حفظه . وكان في القراءات عالماً جامعاً . قرأ القرآن وأقرأه على الوجوه السبعة .

شيوخه وتلاميذه

بلغ عدد الذين ذكرهم في (معجم أشياخه) ثلاثمائة شيخ والف شيخ [٤] .

وقد حفظت لنا كتب الطبقات بعض الأعلام المشهورين ممن قرأ عليهم وأقرأهم ،

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ (دمشق ١٣٤٧ هـ) (٢) نكت الهميان ص ٢٤٢ فما بعد وشذرات الذهب ٦ : ١٥٤ (٣) السبكي في طبقات الشافعية ٥ : ٢١٦ (٤) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ وفيها وفي طبقات الشافعية ذكر لبعض شيوخه المشهورين فانظرهم ثمة .

جاء في شذرات الذهب : « أجاز له ابو زكريا ابن الصيرفي والقطب ابن ابي عصرون ، والقاسم الإربلي . سمع بدمشق من عمر بن القواس واحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن احمد الغسولي وغيرهم ، وببعلبك من عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمر بن كندي وغيرهما ، وبمصر من الابرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وسمع بالاسكندرية من ابي الحسن علي بن احمد الغرافي وابي الحسين يحيى بن احمد بن الصواف وغيرهما ، وبمكة من التوزي وغيره ، وبنابلس من العماد بن بدران [1] »

« وأجاز له خلق من اصحاب ابن طبرزد والكندي وحنبل وابن الحرستاني وغيرهم وخرج لجماعة من شيوخه وجمع القراءات السبع على الشيخ عبد الله بن جبريل المصري نزيل دمشق [2] » .

وقد حمل عنه الكتاب والسنة وعلم الرجال خلائق لا يحصون كثرة ، وحسبك ان منهم التاج السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى ، والسيوطي المؤلف المكثر ، وانظر قدره عندهما في ترجمتها له فيما الفا من كتب الرجال ، ومنهم الصفدي صاحب « نكت الهميان » واليك شهادته فيه في كتابه نكت الهميان ، قال :

« اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده من جمود المحدثين و كوذنة النقلة ، بل هو فقيه النظر له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الائمة من السلف وارباب المقالات . وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين مافيه من ضعف متن او ظلام إسناد أو طعن في رواة ؛ وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده . [3] » وقد قرأ عليه الصفدي هذا من تاريخ الاسلام المغازي والسيرة النبوية الى آخر ايام الحسن رضي الله عنه ، وجميع الحوادث الى آخر سنة سبعمائة .

(١) شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ (٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ ، ٣٥٦ (٣) نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٤٢

عمله ووفاته ورثاؤه

ولي في حياته «مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والتنكزية وأم الملك الصالح» حتى اذا كان عام ٧٤١ كف بصره فانقطع عن التأليف واكب على التدريس الى ان وافاه اجله «ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨[١]»

روى التاج السبكي في طبقاته ان وفاة الذهبي كانت «بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح[٢] في قاعة سكنه ورآه الوالد (يعني تقي الدين السبكي) رحمه الله قبل المغرب وهو في السياق وقال: كيف تجدك؟ فقال: في السياق، ثم سأله: أدخل وقت المغرب؟ فقال له الوالد: الم تصل العصر؟ فقال: بلى ولكن لم أصل المغرب الى الآن. وسأل الوالد رحمه الله الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً فأفتاه بذلك، ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل ودفن بباب الصغير، حضرت الصلاة عليه ودفنه.[٣]» وهكذا انقضت حياة حافلة بالعلم والتعليم والدين والتقى. فبكاه العلم وأهله، وبكته المدارس وحلقات التدريس، وفقدته بيوت الكتب التي طالما ملأها بالمفيد الممتع من مصنفاته في علوم الكتاب والسنة والشريعة. وهذه ابيات مما رثاه به تلميذه التاج السبكي:

من للحديث وللسارين في الطلب ... من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
من للرواية والاخبار ينشرها ... بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراية والآثار يحفظها ... بالنقد من وضع اهل الغي والكذب
من للصناعة يدري حل معضلها ... حتى يريك جلاء الشك بالريب
هو الامام الذي روّت روايته ... وطبق الأرض من طلابه النجب

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) هي على يمين المنحدر في زقاق المحكمة قبيل آخره وفي محلها اليوم دار بدير ودار تقي الدين ولا تزال معالم المدرسة ظاهرة عليها ــ كذا أخبرني أحد المطلعين، شأنها في ذلك شأن غيرها من عشرات المدارس التي آوت غرفها كبار العلماء والحفاظ والقراء والفقهاء ومن هذه الغرف خرجت إلى أقطار العالم آلاف الكتب النفيسة التي انتفع بعلمها واهتدى بهديها الملايين من البشر

(٣) طبقات الشافعية

ثبت صدوق خبير حافظ يقظ   في النقل اصدق انباء من الكتب
الله اكبر ما أقرا وأحفظـه   من زاهد ورع في الله مرتقب[١]

شهرته العلمية ومنزلته بين الحفاظ

وبعد فالذهبي احد مفاخر دمشق على وجه الدهر ، جعل منهـا طول حياته محطـاً «يُرحل اليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد»[٢] فهو واحد من أولئك الأعلام الذين ساهموا في بناء مجدها العلمي العظيم وصاروا أمنية المتمني والغاية التي يتطلع إليها كل طامح : حكي عن شيخ الاسلام ابي الفضل بن حجر انه قال : «شربت ماء زمزم لأصل الى مرتبة الذهبي في الحفظ .»[٣]

وجعله السيوطي احد اربعة كان المحدثون في عصره عيالاً عليهم في الرجال وسائر فنون الحديث وهم : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر . «وقد قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الأول ، وللبرزالي في العصريين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييداً لقول بعض مشايخه . على ان الأهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي»[٤]

مؤلفاته

عاش خمساً وسبعين سنة ترك خلالها نحواً من مئة مصنف جمعت من أسمائها ستة وثمانين ، بعضها مشهور متداول كثر منه النفع وعظمت اليه الحاجة .

قرأت مسارد تآليفه في المصادر التي ترجمت له ، فرأيت اكثرهـا في الحديث ورجاله وما بقي منها في التاريخ . وأقصد بالتاريخ هنا : فن التراجم الذي برع فيـه العرب براعة ما بعدها غاية ، وتفننوا فيه فنوناً شتى . أما مؤلفاته التي ضمنها ما «جرح

(١) اختار هذه الابيات السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٤٩ وانظرها مختارة بقلم ناظمها في طبقات الشافعية ٥:٢١٩ (٢) كلمة السبكي (٣) ذيول تذكرة الحفاظ ص ٣٤٨ (٤) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية

وعدّل وفرّع وصحح وعلل واستدرك وأفاد وانتقى واختصر من تآليف المتقدمين والمتأخرين [١] » فقد حوت علماً كثيراً وتيسيراً على العلماء والطلبة ، وأشير هنا الى ان من اطولها تاريخه الكبير المسمى بتاريخ الاسلام في عشرين مجلداً [٢] ، طالعه الحافظ الزملكاني جزءاً جزءاً حتى أنهاه فشهد له بالجلالة [٣] ولعله اعظم مؤلفاته الكبار في التاريخ على الاطلاق ·

ويليه في الضخامة (سير النبلاء) وهو ما نحن بصدد نشر جزء منه اليوم ، والذي يؤخذ من الذين ارخوا الذهبي ان (النبلاء) مختصر من تاريخه الكبير [٤] والذي اميل اليه انه انتقى تراجم من التاريخ الكبير فجمعها في سير النبلاء · والذهبي نفسه تفنن في الاستفادة من تاريخه الكبير فاختصره على عدة مرات ، جاء في شذرات الذهب في صدد مؤلفاته : « منها تاريخ الاسلام ، ومختصر سير النبلاء في عدة مجلدات كثيرة ، ومختصر العبر في اخبار من غبر ، ومختصر آخر سماه الدول الاسلامية ومختصره الصغير المسمى بالاشارة ومختصره ايضاً وسماه الإعلام بوفيات الأعلام [٥] » والذهبي في هذا الفن من التاريخ يكاد لا يجاريه احد وكتبه في الرجال على اختلاف فنونها لا يستغني عنها باحث اليوم ·

وإليك جريدة مؤلفاته التي جمعتها من مصادر مختلفة [٦] ، ولا بد من الاشارة الى انه قد يكون فيها اسمان لكتاب واحد ، كل مصدر يذكره باسم ، كما ان اكثر ما قصر على التراجم هو — في رأيي — جزء من التاريخ الكبير على ما سيمر بك اذا بلغت الكلام على (سير النبلاء) ولعل في غير التراجم ما يدخل ايضاً في هذا الباب :

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) المصادر السابقة وكشف الظنون ومنه اجزاء في الخزانة الاحمدية بحلب (٣) فوات الوفيات (٤) كشف الظنون (٥) منه نسخة رأيتها في دار الكتب الظاهرية وعليها سماع بخط الذهبي نفسه كتبه سنة ٧٣٥ هـ رقمها : مجموعات ١١٦ / ١١

(٦) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ ، ٣٤٨ ، شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ · طبقات الشافعية للسبكي ٥ : ٢١٦ فما بعد ، نكت الهميان ص ٢٤٢ ، كشف الظنون ، قاموس الاعلام ·· وغيرها ·

١ آداب حملة العلم
٢ أحاديث الصفات
٣ أحاديث مختصر ابن الحاجب
٤ أخبار السد
٥ « ابي مسلم الخراساني
٦ اختصار تاريخ الخطيب (جزءان)
٧ « تاريخ ابن السمعاني
٨ « « ابن عساكر (عشرة اجزاء)
٩ « « نيسابور
١٠ « تقويم البلدان لصاحب حماة
١١ « سنن البيهقي (خمسة اجزاء)
١٢ « كتاب الاطراف (جزءان)
١٣ « كتاب البعث للبيهقي
١٤ « « الجهاد لابن عساكر
١٥ « « جواز السماع لجعفر الادفوي
١٦ « « الرد على الرافضة لابن تيمية
١٧ « « الزهد
١٨ « « سلاح المؤمن في الادعية
١٩ « « العلم لابن عبد البر
٢٠ « « الفاروق لشيخ الاسلام الانصاري (مع اختصار وتهذيب)
٢١ اختصار كتاب القدر للبيهقي
٢٢ « « المستدرك للحاكم (جزءان)
٢٣ اختصار وفيات المنذري والشريف النسابة
٢٤ الاصابة في تجريد اسماء الصحابة
٢٥ الاعلام والتجريد في اسماء الصحابة [لعلهما واحد]
٢٦ الإمامة الكبرى
٢٧ تاريخ الاسلام (عشرون مجلداً)
٢٨ التاريخ الممتع (ستة اجزاء)
٢٩ تاريخ النبلاء (الا كثر انه سير النبلاء عينه)
٣٠ التبيان في مناقب عثمان
٣١ التجريد في اسماء الصحابة (لعله الذي مر)
٣٢ تحريم الأدبار (جزءان)
٣٣ تذكرة الحفاظ (اربعة اجزاء)
٣٤ تذهيب التهذيب للكمال (ثلاثة اجزاء)
٣٥ ترجمة السلف
٣٦ التلويح بمن سبق ولحق
٣٧ التمسك بالسنن
٣٨ تنقيح احاديث التعليق لابن هوري
٣٩ توقيف اهل التوفيق على مناقب الصديق
٤٠ الثلاثين البلدية
٤١ جزء صلاة التسبيح
٤٢ « في الشفاعة
٤٣ جزءان في صفة النار
٤٤ جزء في فضل آية الكرسي

٤٥ دعاء المكروب

٤٦ دوام النار

٤٧ دول الاسلام

٤٨ الروع والادجال في بقاء الدجال

٤٩ الزلازل

٥٠ الزيادة المضطربة

٥١ سير اعلام النبلاء

٥٢ سيرة الحلاج

٥٣ طبقات الحفاظ

٥٤ 〃 القراء (وسماه القراء الكبار على الطبقات والأعصار)

٥٥ طرق احاديث النزول

٥٦ العباب في التاريخ

٥٧ العبر في اخبار البشر

٥٨ 〃 〃 خبر من غبر (لعله ماقبله)

٥٩ العرش

٦٠ العلو

٦١ فتح المطالب في اخبار علي بن ابي طالب

٦٢ فضل الحج وافعاله

٦٣ قض نهارك بأخبار ابن المبارك

٦٤ الكاشف (اختصار التذهيب)

٦٥ الكبائر

٦٦ كسروثن رتن الهندي ؟

٦٧ اللباس

٦٨ المحرر في اسماء رجال الكتب الستة (في ذيل تذكرة الحفاظ: المجرد)

٦٩ مختصر ذيل ابن الدثيني

٧٠ 〃 في القراءات

٧١ مسألة السماع

٧٢ مسألة الغيب

٧٣ المستحلى اختصار المحلى

٧٤ المستدرك على مستدرك الحاكم

٧٥ المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والالقاب

٧٦ معجم اشياخه وهو ١٣٠٠ شيخ (كبير وأوسط وصغير)

٧٧ المعجم المختص

٧٨ المقتنى في الضعفا

٧٩ المقتنى في الكنى

٨٠ من تكلم فيه وهو موثق

٨١ الموت وما بعده

٨٢ ميزان الاعتدال (ثلاثة اجزاء)

٨٣ نبأ الدجال

٨٤ نعم السمر في سيرة عمر

٨٥ نفض الجعبة في اخبار شعبة

٨٦ هالة البدر في عدد اهل بدر

هذا وقد أعجبتني في الدلالة على براعته في فنه كلمة السبكي اذ قال فيه : « كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنهـا اخبار من حضرها . » كذلك كان رحمه الله .

شيء من نظمه

لعل من تمام الصورة ان نعرض ما عرضه مترجموه من شعره ، فلا مفر لك من أن تجد في كتب الرجال عندنا آخر كل ترجمة وان لم يكن صاحبها شاعراً قولهم : ومن شعره . وقد حلا لي أن أحيي هنا هذا التقليد احتراماً لمترجمنا الذي كان أحد زعمائه الكبار . كان شعره رحمه الله شعر فقيه تغلب فيه آثار صنعته ، ولا غرابة في ذلك ، فأشد شيء أثراً في المرء ما وقف حياته ليلها ونهارها على الاشتغال فيه :

قال التاج السبكي انشدنا شيخنا الذهبي من لفظه لنفسه :

تولى شباب كأن لم يكن   وأقبل شيب علينـا تولى
ومن عاين المنحنى والنقا   فما بعد هذين الا المصلى [1]

وانشدنا لنفسه وارسل بها معي الى الوالد (يعني تقي الدين بن السبكي) رحمه الله وهي فيما أراه آخر شعر قاله لأن ذلك كان في مرض موته ؛ قبل موته بيومين او ثلاثة :

تقي الدين يا قاضي الممالك   ومن نحن العبيد له وانت مالك
بلغت المجد في دين ودنيـا   ونلت من العلوم مدًى كمالك
ففي الاحكام أقضانا علي   وفي الخدام مع أنس بن مالك
وكابن معين في حفظ ونقـد   وفي الفتيا كسفيان ومالك
وفخر الدين في جدل وبحث   وفي النحو المبرد وابن مالك
وتسكن عند رضوان قريبـاً   كما زحزحت عن نيران مالك

---

(١) طبقات الشافعية ٥:٢١٦

لتعطى في اليمين كتاب خير ولا تعطى كتابك في شمالك
تشفع في أناس في فراء لتكسوهم ولو من رأس مالك

وذكر بعدها ابياتاً على هذا النمط تتعلق بمدحي لم اذكرها وختمها بقوله :

والذهبي إدلال الموالي على المولى بحلمك واحتمالك[1]

وله منظومة في المدلسين انظرها في الطبقات المذكورة (٥ : ٢١٨)

مآخذ العلماء عليه :

من الواجب ان نذكر هنا ما اخذه عليه بعض العلماء : فقد ذهبوا الى انه يقع أحياناً فيمن خالفه وأحياناً يطوي ذكره أو لايوفيه حقه ، فاذا كان المترجم حنبلياً أفاض في تقريظه . ومعاصروه أدرى بنصيب المبالغة من هذا الحكم ، إلا أني ارى من الطرافة ان انقل كلام تلميذه السبكي صاحب الطبقات الذي قدمنا لك اعجابه به ورثاءه له . ولعل القارئ لا ينسى ان السبكي أيضاً شديد الميل والعصبية الى الشافعيـة قال : « وكان .. شديد الميل الى آراء الحنابلة ، كثير الازراء بأهل السنة الذين اذا حضروا كان ابو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة ، فلذلك لا ينصفهم في التراجم ، ولا يصفهم الا وقد رغم منه أنف الراغم : صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه[2] »

☆ ☆ ☆

« وقد انتقده على خطته في تراجم الناس انتقاداً مراً الحافظ ابن المرابط محمد بن عثمان الغرناطي والتاج ابن السبكي ونسباه الى التعصب المفرط ولا تخلو خطته في التراجم من ذلك لا سيما في تراجم الحشوية ومخالفيهم ، لبعـده عن المعقول والعلوم النظرية واكتفائه بالرواية والسماع كما هو شأن غالب الرواة المنصرفين الى السماع والرواية من صغرهم قبل النظر في مبادي العلوم سامحه الله . وقال ابن الوردي في تاريخه : « واستعجل قبل الموت فترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها

(١) المصدر السابق ص ٢١٨ (٢) طبقات الشافعية ٥ : ٢١٧

واعتمد في ذكر سير الناس على احداث يجتمعون به وكان في أنفسهم شيء من الناس فآذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين [1] . اه

هذا قولهم فيه ، وقلما أرخ مؤلف لمعاصريه إلا كثر فيه الكلام . والمرء يخضع للضعف البشري حين يتكلم على من له معهم العلائق، وهو متأثر لا شك برضاه وغضبه على رغمه ، مهما اجتهد في الانصاف ؛ وانما يؤاخذ الله المرء بنيته وهو بعد يخطئ ويصيب . وهؤلاء الذين انتقدوه يخالفونه فيما ذهب اليه من مذهب ، فمن ثمة كان رأيهم فيه موضع نظر . وما اكثر من كان عرضة للاتهام بعداء اهل السنة كلما أراد إصلاحاً ، أو نبذاً لبدعة شائعة ، او نقداً لمخطئ تعتقد فيه العامة .

قيمة هذه الرسالة من سير النبلاء :

سير النبلاء [2] كما في غالب المصادر عشرون مجلداً ، ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون فقال : « هو من جملة ما اختصره من تاريخه الكبير في نحو عشرين مجلداً مرتباً على التراجم بحسب الوفيات وله عليه ذيل في مجلد . وذيله ايضاً الحافظ تقي الدين محمد بن احمد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ » ولصاحب « نكت الهميان » كلمة في التعريف به تفيدنا في معرفة الصورة التي رتب فيها الذهبي هذا الكتاب قال : « وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات مثل الائمة الاربعة ومن جرى مجراهم لكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء [3] »

فعلى هذا يكون سير النبلاء مجموعاً من كتب كثيرة عددها يساوي عدد المترجمين فيه ، واذاً تكون رسالتنا التي ظفرنا بها عن ابن حزم أحد هذه الكتب ، وبه نعرف نسق هذا الكتاب الجليل في جزء مهم منه .

قابلت هذه الرسالة بما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه عن ابن حزم ، فوجدت خلافاً يسيراً

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية . (٢) وقد يسمى سير اعلام النبلاء ، وتسميه بعض المصادر : تاريخ العلماء والنبلاء (فوات الوفيات) وبعضها : تاريخ النبلاء : « نكت الهميان وفوات الوفيات »

(٣) هذه الكلمة نفسها في فوات الوفيات

في الترتيب وتفاصيل زائدة ، ورأيت اسلوب اهل الحديث في رسالتنا هذه أظهر ، وفنهم فيها أغلب . فستعرف منها أعلى سند عند ابن حزم وأنزل سند ، وأجود سند ، ولا يدع الذهبي ان يذكر لنا سنده الى ابن حزم .. ثم النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث . فنغتبط اذ نرى اعلام الحجاز والعراق والشام والاندلس واحياناً مصر والمغرب في سند واحد وهو شيء طريف حقاً .

وفيها بعض أشعار لم اجدها في مصدر أصلاً على كثرة المصادر التي اطلعت عليها حين دراستي لابن حزم ، وسأشير الى ذلك اذا وصلت اليه .

اما المزية الظاهرة لهذه الرسالة فهي في حفظ كثير من اسماء مؤلفات ابن حزم فقد ذكر منها نحو السبعين على حين لم استطع ان اجمع في كتابي عن (ابن حزم) أكثر من ثلاثة وخمسين كتاباً وبعضها لا ذكر له في هذه السبعين ، وهي بين كتاب ضخم يبلغ خمسة عشر الف ورقة وجزء قد لا يعدو الأوراق . والذي يدعو الى الغرابة ان يكون بين هذه المؤلفات خمسة عشر في الطب خاصة .

ويستطرد الذهبي في رسالته هذه فيذكر كلاماً نفيساً في الاجتهاد والتقليد والرياء وأنه داء الفقهاء والتجار الاسخياء والواقفين والمجاهدين ... فيبدو لنا جديداً في اسلوبه يعنى بعض العناية بالتحليل النفسي والمناقشة المنطقية .

ويؤخذ عليه ما يؤخذ على اكثر مؤلفات عصره : شيء من الفوضى في الترتيب وتداخل في الموضوعات لا يصل الى حد تشتيت الذهن ، الا انه في ذلك هنا خير منه في تذكرة الحفاظ . وعدد شيوخ ابن حزم في تذكرة الحفاظ أوفى .

وهذا أوان الشروع في نشر الرسالة :[1]

---

(١) مزية النسخة التي استنسخها لي الشيخ محمد نصيف انها عن نسخة كتبت في عصر المؤلف وقرئت عليه وعليها خطه . الا انها كثيرة التصحيف وفيها نقص في بعض المواضع وقد توفقت الى وجه الصواب فيها في غير صعوبة ؛ لأن كثيراً من المصادر التي نقل عنها الذهبي ميسورة لنا وساعدني على ذلك اشتغالي السابق بالموضوع ، فأنا اذاً لا أشير الا الى القليل من الخطأ في الاصل . وقد قسمت الرسالة الى موضوعات صغرى جعلتها بين معقوفتين [ ]

نموذج من خط الذهبي صاحب سير النبلاء

سماع بخط الذهبي نفسه على كتابه (الإعلام بوفيات الأعلام)

المحفوظ بدار الكتب الظاهرية (مجموع ١١/١١٦)

ونصه : سمع الكتاب علي من لفظي كاتبه الأمير الفاضل ناصر الدين ابو الفوارس محمد بن طولوبغا السيفي والقاضي الإمام شرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراني والإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان ابن الشرجاني في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

وكتب محمد بن احمد بن عثمان عفا الله عنه وصح بالمدرسة الصدرية .

ترجمة ابن حزم منقولة من سير النبلاء للذهبي

الحمد لله

[نسبه ومولده]

ابن حزم الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أَحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان (١) بن حرب الاموي المعروف بيزيد الخير نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق ، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف ٠

وكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية ، وكان جده خلف ابن معدان هو أول من دخل الاندلس في زمن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل ٠

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلثمائة ٠

[شيوخه وتلاميذه]

وسمع في سنة أربعمائة وبعدها من طائفة منهم يحيى بن مسعود بن وجه الجنة صاحب قاسم بن أصبغ فهو أعلى شيخ عنده ٠ ومن أَبي عمر أحمد بن

(١) في الأصل بن سفيان والتصحيح عن ارشاد الأديب وتذكرة الحفاظ ٠

محمد الجسور ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي وحمام[1] بن أحمد القاضي ومحمدبن سعيد بن نبات وعبد الله بن ربيع التميمي وعبد الرحمن بن عبد الله ابن خالد وعبد الله بن محمد بن عثمان وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي وعبدالله ابن يوسف بن نامي وأحمد بن قاسم بن أصبغ . وينزل الى أن يروي عن ابي عمر بن عبد البر واحمد بن عمر بن أنس العذري ، وأجود ماعنده من الكتب سنن النسائي يحمله عن ابن ربيع عن ابن الاحمر عنه[2] ، وأنزل ماعنده صحيح مسلم بينه[3] وبينه خمسة رجال ، وأعلى مارأيت له حديث بينه وبين وكيع فيه ثلاثة أنفس .

حدث عنه ابنه أبو رافع الفضل وأبو عبد الله الحميدي وولد القاضي أبي بكر [بن] العربي وطائفة ، وآخر من[4] روى عنه مروياته بالإجازة أبو الحسن[5] شريح بن محمد .

[نشأته ونبوغه]

نشأ في تنعم ورفاهية ورزق ذكاء مفرطًا وذهنًا سيالاً وكتبًا نفيسة كثيرة . وكان والده من كبراء اهل قرطبة عمل الوزارة في الدولة العامرية وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته . وقد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر

(١) في الأصل : جهام . والتصحيح عن الصلة لابن بشكوال ص ١٥٦ ورقم الترجمة ٣٤٧
(٢) يعني عن النسائي . (٣) يعني : بين مسلم وبينه . (٤) في الأصل : وآخرين . (٥) في الأصل أبو الحسن بن شريح والتصحيح عن تذكرة الحفاظ إذ جاء ذكره في حديث يرويه الذهبي عن أبي القاسم احمد بن يزيد القاضي عن أبي الحسن شريح بن محمد الرعيني هذا عن ابن حزم . (٣ : ٣٢٩)

وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثرت به تأثيراً ليته سلم من ذلك ، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق وتقدمه على العلوم فتألمت له : فإنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظير على يبس فيه وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول . قيل إنه تفقه أولاً للشافعي . ثم أداه اجتهاده الى القول بنفي القياس كله : جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال . وصنف في ذلك كتباً كثيرة وناظر عليه وبسط لسانه وقلمه ، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب بل فحج [1] العبارة وسب وجدّع [2] فكان جزاؤه من جنس فعله : بحيث أنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت ، واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة وأخذاً ومؤاخذة ، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهين ، فتارة يطربون ومرة يعجبون ومن تفرده يهزؤون . وفي الجملة فالكمال عزيز ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ينهض بعلوم جمة ويجيد النقل ويحسن النظم والنثر وفيه دين وخير ، ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة . وقد زهد في الرياسة ولزم منزله مكباً على العلم ، فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه ، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار :

(١) فحج : تكبر . ولعل (في) ساقطة قبل كلمة : العبارة (٢) جدعة تجديعاً : قال له : (جدعاً لك) والجدع الحبس وقطع الأنف أو الأذن أو اليد ـ القاموس

قال أبو حامد الغزالي : « وجدت في أسماء الله كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه »

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه [1] من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة [2] . »

قال أبو عبد الله الحميدي : « كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين . وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير جمعته على حروف المعجم . »

[تركه الوزارة وإقباله على العلم]

وقال أبو القاسم صاعد : « كان أبوه أبو عمر من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر مدبر دولة المؤيد بالله بن المستنصر المرواني ثم وزر للمظفر ، ووزر أبو محمد للمستظهر عبد الرحمن بن هشام ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على العلوم الشرعية وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه (قلت: ما أعرض

(١) في الأصل : حفظ، والتصحيح عن تذكرة الحفاظ ــ هـذا ولم نجد الجملة بهذه العبارة في طبقات الأمم المطبوع لصاعد (٢) زاد صاعد : وهذا شيء ماعلمناه من أحد كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري فانه أكثر أهل الإسلام تأليفاً ــ طبقات الأمم ص ١١٠ (مطبعة السعادة)

عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرافاً عن السنة ، قال :) وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله ٠ »

[حملة خصومه عليه وانصاف الذهبي له]

وقدحط أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب (القواصم والعواصم) وعلى الظاهرية فقال : « هي أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي رضي الله عنه يوم صفين فقالت : (لا حكم إلا لله) ٠ وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب الى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة : يضع ويرفع ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء مالم يقولوا تنفيراً للقلوب منهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله وصفاته فجاء فيه بطوام ٠ واتفق كونه بين[1] قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بالدليل كاعوا[2] فيتضاحك مع أصحابه منهم ، وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ، وبشبه كان يوردها على الملوك ، فكانوا يحملونه ويحمونه بما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك ٠ وفي حين عودي[3] من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالهم لافحة ، فقاسيتهم مع غير أقران وفي عدم أنصار ، إلى حساد يطؤون عقبي ، تارة تذهب لهم نفسي ، وأخرى

(١) في الأصل من والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي (٢) كاعوا : خافوا وجبنوا

(٣) في الأصل : عوده ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن تذكرة الحفاظ

ينكشر لهم ضرسي ، وأنا مابين إعراض عنهم او تشغيب بهم . وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الاسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاءني آخر برسالة (في الاعتقاد) فنقضتها بـ (رسالة العزة) والأمر أفحش من أن ينقض . يقولون : لا قول إلا ماقال الله ولانتبع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر . فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة في تهويل ، فأوصيكم بوصيتي : ألا تستدلوا عليهم وان تطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب عليك وإن طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلاً . فأما قولهم : (لا قول إلا ماقال الله) فحق ولكن أرني ماقال ، وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره فيما قاله وأخبر به . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله لأنك لاتدري ماحكم الله ولكن أنزلهم على حكمك) وصح انه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ... الحديث . » اه

قلت : لم ينصف القاضي أبوبكر رحمه الله شيخ أبيه في العلم ، ولا تكلم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، فرحمهما الله وغفر لهما .

[سبب طلبه العلم ، وبلوغه فيه درجة الاجتهاد]

قال اليسع بن حزم الغافقي — وذكر أبا محمد — فقال : « أما محفوظه فبحر عجاج وماء ثجاج ، يخرج من بحره مرجان الحكم ، وينبت بثجاجه

ألفاف النعم في رياض الهمم ، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى[1] على كل أهل دين ، وألف الملل والنحل ، وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا السرير . أنشد المعتمد فأجاد وقصد بلنسية وبها المظفر احد الأطواد . وحدثني عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب[2] فيها فاعترض في ذلك ، فقال له بعض الحضار : (هذا العلم ليس من منتحلاتك) فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، وو كف منه وابل فما كف ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب . »

[كلام للذهبي في الاجتهاد]

قلت : نعم من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له بذلك عدد من الأئمة لم يسغ له أن يقلد ، كما أن الفقيه المبتدي والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً ؛ فكيف يجتهد ؟ وما الذي يقول ؟ وعلام يبني وكيف يطير ولما يريش . والقسم الثالث الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث الذى قد حفظ مختصراً في الفروع وكتاباً في قواعد الأصول وقرأ النحو وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته . فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد[3] وتأهل للنظر في دلائل الأئمة ، فمتى وضح له الحق في مسألة وثبت فيها النص وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة

(١) في الأصل أزكى وهو تصحيف والتصحيح عن تذكرة الحفاظ (٢) هي في الأصل بواو واحدة
(٣) في الأصل : والمقيد

مثلاً أو كمالك أو الثوري أو الأوزاعي أو الشافعي وأبي عبيد وأحمد وإسحق .. فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص ، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد . فإن خاف من تشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها ، ولا يتراءى بفعلها ، فربما أعجبته نفسه وأحب الظهور فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه . فكم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرياسة الدينية ، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء ، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة ، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين : فتراهم يلتقون العدو ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبأة وكماين من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال .. ولبس العراقي[1] المذهبة والخوذ المزخرفة والعدد المحلاة .. على نفوس متكبرة وفرسان متجبرة . وينضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة وظلم الرعية وشرب المسكر ، فأنى ينصرون ؟ وكيف لا يخذلون ؟ اللهم فانصر دينك ، ووفق عبادك . فمن طلب العلم للعمل كره العلم وبكى على نفسه ، ومن طلب العلم للمدارس والافتاء والفخر والرياء تحامق واختال ، وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس

قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها (أي دسسها بالفجور والمعصية . قلبت فيه الألف سينًا) .

يتبع   سعيد الافغاني

(١) العرقية : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة ، مولدة ـ التاج ، وفي الأصل : العراقل وهي تصحيف

مميزات بني أمية (١)

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش

لو حاول باحث ان يتحدث اليكم في موضوع مميزات بني أميـة حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون واصحاب السير والتراجم : إن أمية تصغير أمة ، والأمة المملوكة ، والنسب اليه أموى بضم الهمزة فأما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزّى واللاّت ومناة وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأميـة الاكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وابو حرب وسفيان وابو سفيان وعمرو وابو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أى الأسود . ومن ولده العاص وابو العاص والعيص وابو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما اكرم عيصه وهم آباؤه واعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصيّ هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الإيلاف لرؤساء القبائل ؛ والإيلاف العهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء من الربح ، ويجعل لهم مع ذلك متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . والى هذا

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي في مدرّج الجامعة السورية بدمشق يوم ٣ ذي القعدة ١٣٥٨ و ١٤ كانون الأول ١٩٣٩

الإيلاف الاشارة في سورة قريش (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى انه تعالى منّ على قريش بما انعم عليهم من الايلاف الذي به كانوا يمتارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من اصحاب الفيل الذين جاءوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت .

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غَزَّة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات ، كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة . فبنو أمية هم الذين هيأوا اسباب التجارة لقريش وانقذوهم من الغصوب ، أي من اخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً . وادخلوا مكة في طور مدني بعد ان كان عيش أهلها معقوداً بظبات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عُرفت قريش في ارض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذاً يؤلفون الجوار ويجبرون قريشاً بميرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجبرين ، والعرب تسميهم اقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعالهم .

مكانة أبي سفيان بن حرب

وكان ابو سفيان (صخر بن حرب) — والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وام حبيبة وجويرية — تاجراً عظيماً يجهز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج احياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب . واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة . وقاد ابو سفيان قريشاً كلها يوم أُحد ولم يَقدْها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويومُ نَكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يَلملم من نواحي مكة ، فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب امرها عبد المطلب او المطلب . وابو سفيان كان يوم أُحد

ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فأبلى بلاء حسناً حتى انقذ اموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين الف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم اكرمه الأمراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبيّ الشام ضيعة يقال لها نقنس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وابو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب ابو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، اول الدعوة ، ان ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل ان معاوية ويزيد اسلما قبل ابيهما ، وكتما عنه اسلامهما ، وكذلك ابنته ام حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول اسلمت قبل ابيها . وكانت تحت عبيد الله ابن جحش ، هاجرت معه الى ارض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، فخطب عليه ام حبيبة فزوجها اياه ، واصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله اربعمائة دينار . وزار ابو سفيان ابنته ام حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول ان يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فأراد ان يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يا بُنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت امرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو واولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يا رسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حُنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب . وكان يقف على الكراديس يقصّ أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ؛ والقاص الداعية .

تميز نساء بني أمية

وتطور ابو سفيان لما أسلم ، واخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وابدى براعة حربية في الاسلام كان يبدي مثلها في الجاهلية . قال ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك — واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم ، وبهـا فتح الشام كله جنوبه وشماله — وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وابنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن احد من المسلمين الا رميتنه بهذه الحجارة وقلتن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهله ، وعن النساء وهن امام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء مُمرْعان من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت او عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عز الاسلام والأمهات والأزواج .

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جُوَيرية ابنة ابي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط ، وكانت عروساً والخلوق على جسمها تنبعث رائحته — كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سابقن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي ارباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ما عانوا من الجهاد في فتحها . وتدرب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد ابو بكر في خلافته

ليزيد بن ابي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع أمراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وان تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيعه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات يزيد في طاعون عَمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . اما زياد ابنه الثالث فكان من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين انبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين ام عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلك .

منن بني أمية على العرب وتمدينهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلها الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً في الحجاز ، فأثبتا بهذا ان بيتهما النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي ان امير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من الصحف وارسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وابقى عنده مصحفاً سموه الإمام ، ولولا عمله المجيد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعتماد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون ما لا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق ان مات أحدهم يخشى أن يضيع ما كان يحفظه .

وكان امير المؤمنين عثمان يكرم حَرْملة بن المنذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أبد الحضرمي وبعَبيد بن شَرْية الجرهمي من اليمن يقصان عليه اخبار ملوك العرب والعجم ، وامر بتدوين

ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفى معاوية كعب الأحبار الكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عادياء أخي السموءل بن عادياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب انها كانت في دمشق . وامير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز الأموي هو الذي دوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ماوسد اليهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه واكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما استطاع الخليفتان الأولان ابو بكر وعمر ان ينقضا ما أبرمه الرسول من ذلك . والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة اكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها المتمرنون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الإسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

ميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الأبهة التى اصطنعها فقال : إننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية اقنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن

الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الادارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فأخرج الادارة بذلك من سذاجة البداوة الى بحبوحة الحضارة .

ما كان معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من أهل بيته غالباً ، ويستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، وكان له منهم مجالس اشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود . واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالي بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى بيعها قائمة اكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وادخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأيهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد ان يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك ان يتلافى ما وقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . وبجميل سياسته أخرج الخلافة من آل علي الى بني أمية وأخذها من الحسن بن علي بمال دفعه اليه ووعود وعده بها ، وكان بذلك عام الجماعة اي اجماع المسلمين على إمام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منهـا انه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني ان يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا للمتطوعة يبحرون برضاهم غير مكرهين ولما جاء الخليفة الثالث اطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص ألف وسبعمائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون الف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله ابداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وارزاقه ، ووقت اوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو اول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل مايلزمه ، وجعل الجندي لا يستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من اجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجند هو ماتسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فمن جند دمشق ، الى جند الأردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قنسرين . وأهم ما كانوا يهتمون له المرابطة على الحدود والثغور القريبة من ارض الروم . ولطالما ادهش معاوية الروم بصدقه كما ادهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رهنهم واخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية اول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم مايريد

فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

كان لمعاوية انواع من السياسات برّز فيها حتى عدّ من أعظم ساسة العرب . كان لا يولّي الا السيد المسوّد في قومه ، ويستميل القلوب بالعطاء او بالاقناع او بالإغضاء ، فاذا لم تُنجع هذه الوسائل وتوجس شراً ممن اغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي انه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة اذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للعلويين والهاشميين فاذا لامه احد على هذا البذل اجابهم إن الحروب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : اعطى عبد الله بن جعفر اربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا؟ فقال : ويحكم إنما اعطيتها اهل المدينة اجمعين فما يده الا عاربة .

واستخدم معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه ابي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده

ومجده ، وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، ودعا على اهل حربه . واستخدم ايضاً الشعراء للدعاية ، وزين لهم الدعوة الى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة ، واخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء ، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في المدنية الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم ، خصوصاً اذا كان الشاعر فحلاً مفلقاً . اما الخطابة فكان جميع أهله خطباء ، وقد كان قوادهم ورجالهم كذلك خطباء أبيناء . وخطب زياد وعقبة والحجاج من ابلغ ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابداع معاوية

كان معاوية يخرّج عماله في الادارة ويعلمهم إياها بالعمل ، ولا يعتمد الا على العظماء والدهاة امثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته اذا اراد ان يولي رجلاً من آله بني حرب ولاه الطائف ، فان رأى منه خيراً ومـا يعجبه ولاه مكة معها ، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة ، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في ابي جاد ، فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن ، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها انه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما احب اجلاءهم ، وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم ، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين ، فنقل الى الساحل قوماً من زُطّ البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن وصور ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وانطاكية جماعةً . واسكن حصن سفيان الذي بناه على اميال من طرابلس ، جماعة كثيرة من اليهود ، وأسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم بأهلها الأصليين ، فأصبح الساحل كالداخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب وبالسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود .

رأى معاوية أن ارض الحجاز قاحلة ، يعيش اهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ اقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد و كثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح الناس يعيشون من عطائهم ، و كان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم . وفي الاسلام دخل الممتازون في اعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشي معاوية ان يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم موسم الحج ، أو على صدقات المسلمين ، فمني في جملة ما عني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، واقام سدوداً لخزن المياه والأمطار ، فعاشت الحجاز من ارضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أمرته على قدمه في هذا الباب فما ابطلت عمله بل تعهدته ونمته . وتسلسل الفكر ماثل في بني أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، لا ينقضه ولا يغيره . واعظم ما فاز به معاوية ان رعيته من اهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم وري زناده ووصل الى اهدافه وكتب له النصر على اعدائه .

ميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا اردنا ان نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الأعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لانرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانيهم ، واين مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وسياستها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجده لأمه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد اعمال تتضاءل معها سيرة الزهاد المشهورين .

قال ابن الأثير : ولقد سمعت عن عمر بن العزيز كلمة اعجبتني جداً ، وهي انه قيل له في الذي يُخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتر كوني اعمل الخير فكم اعيش ؟ وكذلك كان ٠

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومراميها ومظاهرها ، وكان ابناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف ، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق ، كانت أمه كردية ، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا اولهم السفاح ، ولذلك جعلوه اول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو اكبر منه سناً وعلماً وسابقة ٠ افسد العباسيون دمهم العربي بالاقتران بالاماء ، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على ابناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الأصول وقامت الفروع بدلهـا ، وأصبح بنو العباس على طول الأيام خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم ٠ اما بنو أمية فما عهد فيهم هذا ، كان دمهم صافياً واخلاقهم متشاكلة ، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمتـه لهم الفطرة ، وقضت به احكام الشريعة ٠

ما سمع في دولة بني أمية ان يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرَم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لا يَعنيهن من شؤون الرجال ، ولذلك اوصى المنصور ابنه الا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته ٠ وكان من اثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤامرات في قصور الخلفاء ، واصبح قتلهم من الأمور المعتاد وقوعها ، وكانوا — اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم واثنين او ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم — الى ذلّ ليس بعده ذل ، واكثرهم أشبه بمشايخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يُعصَوْن ، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ، واحكامهم نافذة في القاصية والدانية ٠

ربما يُعترض على هذا بأن الوليد بن يزيد من الأمويين قد قُتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تخليه عن اليمانية لا لفسقه ولا للهوه كما اتهموه ، وهذه التهمة اذاعوها ليبرروا أمام الأمة مقتله ، اما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى ان الخليفة الذي جار عليه التاريخ — وتاريخ بني أمية كتبه اعداء دولتهم بعدهم ، كما شاءت الأهواء السياسية — ونعني به امير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها اعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا امر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فاتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الحط من يزيد وآل يزيد .

عمران الأمويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالعمران ، فقد اقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتمصير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وجيء بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة . قال احد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) إنكم بنيتم الايوانات في المفاوز ، فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً الا ان يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بني .

أما ماقامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبدالرحمن الداخل وآل بيته فأعاد به مجد آبائه بعد ان قضى العباسيون في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث ماتم للعرب من

حضارة قام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلثان الآخران قاما في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كمصر ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وغزنة ٠

وبما عرف به الأمويون من مرونة سياسية وادارة حكيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في القاصية من دون ما دعاية ولا تبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ارباع مساحة اوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه ٠ وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والأهاند) والاهاند او الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في الموسم بمكة ، وفيهم الاسود والأحمر والأصفر والابيض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية ٠ واصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر اهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الأمويين تعد شيئاً بين العواصم والحواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة ان ينسب للأمويين شيء من الحسنات تذكر الناس بخصومهم أمس ، وقضوا على كل اثر لهم على نحو ما فعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية

(يتبع)

اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المرويّ

عن الخليل بن أحمد

أحاط بكتاب العين ونشأته كثير من الغموض ، وتضاربت أقوال الناس في مؤلفه تضارباً شديداً ، وكثر الطعن فيه حتى ليصعب على الباحث أن يتخذ لنفسه بشأنه رأياً خالصاً من كل شائبة ، وأين هذا من قيمة الكتاب وحسن الأثر الذي أحدثه في عالم المعاجم العربية إذ كان أولها وفيه ظهر الترتيب على حروف المعجم وعنه أخذ . وقد تعرض بعض علماء عصرنا للبحث في كتاب العين بحثاً ممتعاً [1] وعنوا ببعض نواحيه غير أنهم جميعاً لم يذكروا بالتفصيل تاريخ نشأته وكيفية تأليفه مع أن ذلك فصل جليل القدر من تاريخ علم اللغة العربية بل من تاريخ العلوم العربية عامة لما له من أثر في نشوء ترتيب الألفاظ على حروف المعجم ذلك الترتيب الذي اتخذه مؤلفو العرب نهجاً في التأليف اقروه واستفادوا منه وقدموه خالصاً لعلماء الغرب يجنون منه أحسن الثمر .

وسأحاول في هذا البحث أن أسد هذه الثغرة ما استطعت ، وسبيلي إلى ذلك أن أدرس أولاً أقوال العلماء في كتاب العين واحررها ثم اذكر كيف أسس بناؤه فاستطرد إلى الترتيب على حروف المعجم وأثر الخليل بن احمد في ذلك واختتم البحث في صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه .

---

(١) نذكر منهم على ترتيب تاريخ نشر أبحاثهم الاستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٢ — ١٢٤ والاستاذ احمد أمين في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٦— ٢٦٩ والاستاذ ويليام مارسيه في درس له عن المعاجم العربية ألقاه عام ١٩٣٦ (اخذ عنه مذكرات الاستاذان محمد المبارك وخلدون الكناني وتفضلا باعارتي هذه المذكرات) والاستاذ الاب انستاس مارى الكرملي في مجلة الثقافة السنة الاولى العدد ٣٢ ص ٤٢— ٤٥ والعدد ٧٢ ص ٣٢—٣٣ الى غير ذلك من الابحاث التي سنذكرها خلال دراستنا هذه .

١ — اقوال العلماء في كتاب العين وتحريرها

لم يُعرف كتاب العين في حياة مَن نُسب إليه اي الخليل بن احمد[١] نابغة العرب ومبدع علم العروض ومثقف الأنغام، ولم يرو الكتاب عنه تلميذ معروف من تلامذته بل ظهر بعد وفاته سنة ١٧٠ او ١٧٥ ورواه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار[٢] من فقهاء خراسان وظهر في كتاب العين ما يدعو اكثر من مرة إلى استنكار نسبته إلى الخليل حتى لقد قيل « اتفق علماء اللغة على كثرة الأغاليط في كتاب العين[٣] » « واطبق الجمهور منهم على القدح فيه[٤] » « فان فيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز ان يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه[٥] » والخليل كان امة في اللغة « يُربأ به عن نسبة الخلل إليه[٦] » زد إلى ذلك « ان ما وقع في الكتاب من معاني النحو انما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين[٧] » مع ان الخليل شيخ البصريين . وهنالك مآخذ أخرى على الكتاب سنراها فيما يأتي ؛ على ان كل هذه الحجج لا تستقيم في تعليل ادعاء

(١) ذكر الاستاذ ابن شنب في معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٤٠ والاستاذ بروكلمان في تاريخ الآداب العربية (G. A. L.) ١ : ١٠٠ وفي ذيله له ايضاً ١ : ١٥٩ المظان التي ترجم فيها للخليل بن احمد ونضيف اليها اخبار النحويين البصريين للسيرافي طبعة الاستاذ كرنكو ص ٣٨ والكامل لابن الاثير في وفيات سنة ١٦٠ ، ٦ : ١٨ وتاريخ ابن كثير ١٠ : ١٦١ في وفيات سنة ١٧٠ وغاية النهاية في طبقات القرا ١ : ٢٧٥ ومفتاح السعادة لطاشكبري ١ : ٩٥ وطبقات النحويين لابن قاضي شهبه نسخة الظاهرية تاريخ ٤٢٨ ص ٢٧٩ وتنقيح المقال للمامقاني ١ : ٤٠٢ ومنتهى المقال لابي علي ١٢٨ ورجال ميرزا محمد ١٢٢ وسرح العيون لابن نباته ص ١٤٤ ـ ١٤٧ طبعة ١٢٧٨

(٢) يترجم له الازهري في تهذيب اللغة ص ٢٧ من طبعة زترستين Zettersten وياقوت في رشاد الاريب طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ ـ ٢٢٧

(٣) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ص ٢٣١

(٤) المزهر مطبعة الاسماعيلية ، ١٢٨٢ ، ١ : ٤٨ و ٥٨

(٥) عن ابن جني في المزهر ، ١ : ٤٠ والبلغة لمحمد صديق حسن خان ، طبعة ١٢٩٦ ص ١٥٨

(٦) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤١

(٧) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤٢ وكشف الظنون طبعة ١٣١١ ، ٢ : ٢٩٠

الليث بن المظفر نسبة الكتاب الى الخليل ، والكتاب إبداع يتمنى كل عالم ان ينسب اليه . وكذلك تضاربت آراء العلماء وانقسموا الى طوائف اربع في امر نسبته الى الخليل .

نسب الى الطائفة الأولى القول بان الخليل لاعلاقة له بكتاب العين فذكر ان ابا بكر بن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) قال : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ولا روي في شيء من الأخبار انه عمل هذا البتة[١] » والحق ان ابن دريد لم يقل هذا فقد ورد في كتاب الجمهرة له ما يناقضه[٢] وفي الخبر مغالاة كبيرة وخطأ فقد روى ابن راهويه (—٢٣٨) الفقيه المعاصر لليث ان الخليل شرع في عمله[٣] كما سنرى ذلك ، وذكر لنا ابن فارس (— ٣٩٥) انه قرأ الكتاب مرويا بسند أوصله الى بندار بن لوه الأصفهاني ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل[٤] » وذكر ابو محمد بن درستويه (٢٥٨ — ٣٤٧) انه سمع كتاب العين بهذا الاسناد : « قال ابو الحسن علي بن مهدى الكسروي ، حدثني محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث قال قال الليث بن المظفر بن نصر بن سيار كنت اسير الى الخليل[٥] » الى آخر ما ذكر . ورواه ابن عبد البر الاندلسي[٦] (—٤٦٣) وابو بكر محمد بن خير بن خليفة[٧] (٥٠٢ — ٥٧٥) بسند يتصل الى ابي الحسن علي بن مهدي عن ابي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الليث بن المظفر بن سيار الليثي عن ابي عبد الرحمن الخليل . ولعل الناس رأوا ان كتاب العين انتقل الى علماء كثيرين دون رواية فظنوا ان لا رواية له فنسبوا الى ابن دريد ما لم يقل

(١) في الفهرست طبعة فلوجل ص ٤٢ ـ ٤٣ (٢) قال في ١/ ٣ « وقد الف ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد ... كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته » (٣) التهذيب للازهري ص ٢٧ وارشاد الاريب لياقوت طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ (٤) المقاييس في اللغة نسخة مصورة في المجمع العلمي ص ١ (٥) في الفهرست ٤٣ (٦) في المزهر ١ : ٤٦ (٧) في فهرسة مارواه عن شيوخه في المكتبة الاندلسية ص ٣٤٩

وذكروا عن ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١) انه قال ان «كتاب العين موجود ولا رواية له[1]» وقالوا سئل النضر بن شميل (— ٢٠٣) عنه فأنكره فقيل له: لعله ألفه بعدك، فقال: اوخرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن احمد[2]» ولعلهم نسوا ان النضر لو كان صاحب الكتاب لما كان نسبه الى الخليل بل تبجح به. وذكر الزبيدي في رفض الكتاب مايلي[3] «لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن ابي حاتم انكره ابو حاتم واصحابه اشد إنكار ودفعه بأبلغ الدفع، وكيف لا ينكره ابو حاتم على ان يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل وقد عبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به منهم النضر بن شميل ومؤرج ونصر بن علي وابو الحسن الأخفش وامثالهم... ثم ظهر الكتاب بأُخَرَةٍ في زمان ابي حاتم وفي حال رياسته وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين لأن ابا حاتم توفي سنة ٢٥٥[4]» وليس في هذا القول تحقيق فكيف لا يعرفه ابو فيض مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي[5] وقد استدرك عليه كما يقول ابن النديم[6] واستدرك عليه النضر بن شميل[7] ايضاً واذ قد عرفه مؤرج (توفي سنة ١٩٥) والنضر بن شميل (توفي سنة ٢٠٣ او ٢٠٤) فهو قد انتقل من خراسان قبل سنة ٢٥٠ ففي هذا الخبر أغلاط تاريخية تجعلنا نشك في بقيته اذ تقول «ولم يلتفت اليه احد من العلماء، ولا استجازوا رواية حرف منه ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزيين كتبهم وتحلية عملهم عن الخليل والنقل لعلمه وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وابي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين فما علمنا احدا نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً»، واذا

(١) الفهرست ٦٠ (٢) ارشاد ٦ : ٢٢٧ وانظر عن النضر بروكلمان ١ : ١٠٢ وذيله ١ : ١٦١ (٣) المزهر ١ : ٤٢ (٤) المزهر ١ : ٤٢ وانظر عن ابي حاتم سهل بن محمد السجستاني بروكلمان ١ : ١٠٧ وذيله ٢ : ٦٧ (٥) انظر بروكلمان ١ : ١٠٢ (٦) الفهرست ٤٣ (٧) كشف الظنون ٢ : ٢٩١، نزهة الالباء للانباري، طبعة ١٢٩٤، ص ١١١، وفيات الاعيان ٢ : ١٠٣

قبلنا ان هؤلاء العلماء لم يستجيزوا الرواية من الكتاب فذلك لأنهم لم يثقوا براوي الكتاب والحق يقال اننا لم نتلق خبراً موثوقاً عنهم ينفي اثر الخليل من الكتاب نفياً باتاً حتى إن الزبيدي الذي يورد هذه الاعتراضات لا ينفي عن الخليل يده في الكتاب ٠

والطائفة الثانية تنسب الكتاب الى الخليل وعلى رأسها ابن فارس (— ٣٩٥) الذي يدعي ان « اعلا كتب اللغة كتاب ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين[١] » ومنها الانباري الذي يقول ان « الخليل اول من ضبط اللغة واملى كتاب العين على الليث بن المظفر[٢] » ويقول بتأليف الخليل للكتاب ابن خلدون[٣] وابو بكر بن خليفة[٤] ومحمد صديق حسن خان[٥] وابن شنب[٦] ولعلهم حين قالوا بذلك لم ينتبهوا الى المطاعن على الكتاب ، ودليلنا على ذلك ان ابن فارس حين يذكر اخطاء كتاب العين يخشى ان ينسبه بنفسه الى الخليل فيقول « واما الكتاب المنسوب الى الخليل فان فيه من الأخلال مالاخفاء به على علماء اللغة[٧] » وكذلك يبدو ان هذه الطائفة لم توثق قولها بدليل بل القته على عواهنه بلا تحرير ٠

والطائفة الثالثة تدعي ان الخليل شرع بالكتاب ومات قبل ان يتمه فأتمه الليث ٠ واول من قال بذلك على ما نعلم اسحاق بن ابراهيم الحنظلي بن راهويه الفقيه (— ٢٣٨) وهو عالم خراسان تلك البلدة التي ألف فيها الكتاب فقد ثبت عنه انه قال « كان الليث بن المظفر رجلاً صالحاً ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين فأحب الليث ان ينفق الكتاب كله فسمى لسانه الخليل[٨] » وذُكر عنه انه قال « كان الخليل عمل منه باب العين وحده وأحب الليث ان ينفق سوق

(١) المقاييس في اللغة ص ١ (٢) نزهة الالباء ٥٥ (٣) المقدمة في باب اللغة ٠
(٤) فهرسة ما رواه ٣٦٩ (٥) البلغة ٢٦ (٦) معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٤٠
(٧) الصاحبي في فقه اللغة ، مط ٠ المؤيد ١٣٢٨ ، ص ١٨ (٨) التهذيب ٢٧ ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٢

الخليل فصنف باقيه[1] » وثانيهما السيرافي (—٣٦٨) فقد قال في طبقات النحاة في ترجمة الخليل « عمل اول كتاب العين المعروف المشهور[2] » وهذه العبارة كما يقول السيوطي « صريحة في ان الخليل لم يكمل كتاب العين[3] » وثالثهما الازهري (٢٨٢—٣٧٠) ويدعي « انه لم ير خلافاً بين اللغويين ان الثابت المحمل في اول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد وان ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه[4] » ويتبع هؤلاء عدد من العلماء[5]

وقد حيكت الأقاصيص حول هذه الفكرة فروي عن الحسن بن علي المهلبي ان الخليل كافأ الليث بالكتاب فحرقته امرأة الليث نكاية بزوجها ، وكان قد حفظ نصفه فرغب الى العلماء ان يجمعوا النصف الآخر ، وكذلك خرج الكتاب غير متساوي التأليف[6] . واقوال هذه الطائفة جميعاً مردودة عند من درس الكتاب فوجد ان المآخذ عليه هي في اول الكتاب وآخره وفي باب العين وغيره من الابواب كما سنرى ، ولو انها تزيد وتنقص تبعاً للابواب .

والرأي الذي ينجو من كل اعتراض وجيه قول الطائفة التي ترى ان الخليل رسم الكتاب ولم يحشه ، اي انه وضع ابواب الكتاب ورتبها ثم حصر الابنية المستعملة والمهملة دون ان يذكر معناها واشتقاقها ونذكر في اولها احمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ – ٢٩١)[7] الذي يقول : « انما وقع الغلط في كتاب العين لان الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان هو حشاه لما بقي فيه شيء لان الخليل رجل لم ير مثله[8] » ويأخذ بهذا الرأي ابو الطيب اللغوي (توفي بعد ٣٨١) في

---

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ (٢) اخبار النحويين البصريين نشره الاستاذ كرنكو بيروت ١٩٣٦ ، ص ٣٨ وعنه في بغية الوعاة ٢٤٣ (٣) المزهر ١ : ٣٨ (٤) التهذيب ٣٩ (٥) ياقوت في ارشاده ٤ : ١٨٢ ، سرح العيون ، ص ١٤٤ (٦) طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز ، طبعة عباس اقبال ، ١٩٣٩ ، ص ٣٨ – ٣٩ مفصلا وعنه ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ ، المزهر ١ : ٣٩ ، بغية الوعاة ٢٤٥ (٧) انظر عنه في ذيل بروكلمان ١ : ١٨١ (٨) المزهر ١ : ٣٩ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ وكل ذلك نقلا عن ابي الطيب اللغوي .

كتاب مراتب النحويين ويقول بأن الخليل « هو الذي رتب ابوابه وتوفي من قبل ان يحشوه[1] » وبذلك يأخذ الزبيدي (٣١٦ — ٣٧٩) ملخص كتاب العين والمستدرك عليه حين يقول « وا كثر الظن فيه ان الخليل بوب اصله وثقف كلام العرب ثم هلك قبل كماله[2] » ورأي هذه الطائفة اقرب الآراء جميعًا الى الصحة وابعدها وقوعًا في الاعتراضات التي رأيناها في صدر بحثنا ، ولكنه مقتضب يقتضي الشرح وناقص لا يفي للخليل بكل حقه من الكتاب .

(يتبع) **يوسف العش**



(١) المصدران السابقان (٢) المزهر ١ : ٤١ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ . ويتحفظ ابن جنى (— ٣٩٢) اكثر من ذلك فيقول ترجيحاً : « فان كان للخليل فيه عمل فلعله أومأ الى عمل هذا الكتاب ايماء ولم يله بنفسه » (نزهة الالباء ٥٥) ويقرب من رأي ابن جنى غير انه أوسع وأضبط رأي صاحب مقالة « كتاب العين وطبعه » في لغة العرب السنة ٤ ، الجزء الثاني آب ١٩١٤ ، ص ٥٧ اذ يقول : « أما رأينا الخاص فهو ان مدون نص العين هو الليث واما الذي يروي عنه اغلب ماجاء في النص فهو الخليل بن احمد كما انه هو الذي دفع الليث الى تدوينه بصورته المهودة »

مخطوطات ومطبوعات

الفرزدق

أنشأ الاستاذ خليل مردم بك رسالة أوجز فيها الكلام على الفرزدق ، فأشار الى نسبه ، وأفاض في ذكر أخباره وفي الحوادث التي كان لها أثر في حياته ، ولم يغفل شيئاً من صفاته ومن أخلاقه ومن التناقض في هذه الأخلاق ، وتعرّض لهواه السياسي ولعصبيته العربية ، ووصف شعره الذي يمثل حياة العصر الأموي اكثر من كل شاعر إسلامي ، وتكلم على مافي هذا الشعر من آثار الاسلام والعصبية العربية والقرآن ، وعلى ما تضمنه من شوارد اللغة وفُصَحِها ، ومن أخبار العرب وأيامهم ولم يفته ذكر ما صبغ به من صباغ بدوي ، فقد كان شعر الفرزدق سجل حياته ومرآة عصره ، وتصدّى الاستاذ للمفاضلة بين الفرزدق وجرير وذكر أقوال طائفة من الشعراء والأدباء فيهما ، ثم اندفع في توضيح مواضع شتى من شعر الفرزدق مثل فخره وهجائه ومدحه ووصفه وغزله ورثائه وأدبه وحكمته ، وأرسل الكلام على كل ناحيةٍ من هذه النواحي ، وكان في كل موطن من هذه المواطن يستشهد بطائفة من شعر الفرزدق حتى يكون كلامه قريباً من الأذهان .

وختم الأستاذ خليل مردم بك رسالته بعبارة دلت على تواضعه وانصافه فقد قال : هذه دراسة موجزة للفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي ورأس الشعراء الإسلاميين لا أدعي أنها كاملة ولكن أرجو ان تكون صحيحة .

وحقيقة القول ان القارئ يفرغ من هذه الرسالة ونصب عينيه صورة للفرزدق تمثله في كل النواحي التي أتى على ذكرها الاستاذ تمثيلاً صحيح الوجوه ويغلب على الرسالة تهذيب البيان وهو عنوان تهذيب نفس واضعها وعنوان أدبه السامي في حياته وأحاديثه ومجالسه

شفيق جبري

اعلام النساء

في عالمي العرب والاسلام

هذا كتاب جليل جمع فيه مؤلفه السيد عمر رضا كحالة آلافًا من أسماء النساء العربيات وسير ذوات المناقب الفضلى والمواهب الفذة منذ أيام الجاهلية حتى مشارف عصرنا الجديد ، ولقد رتب هذه الأسماء والسير ترتيبًا معجميًا بدأه بالألف وأنهاه بالياء وقسم هذه الحروف على صفحات كتابه الضخم الذي جاء في ثلاثة أجزاء

ولعل التوفيق الذي ظفر به السيد كحالة في وضعه هذا المعجم الطريف قد واتاه من عمله اليومي فهو من موظفي دار الكتب الأهلية في مجامع المجمع العلمي العربي في دمشق ، كان دأبه طول ايامه الهادئة البحث والتنقير في تضاعيف الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مشهورات النساء اللاتي خلدن آثاراً بارزة في العلم والأدب او العمران والاحسان ، فاستطاع بما أوتيه من صبر على التنقيب ورغبة صادقة في نشر مآثر العربيات والمسلمات ان يؤلف هذا السفر النفيس الذي جاء مفخرة لأمتنا العربية ، فما أحسب أمة مهما بلغت حضارتها وثقافتها في قديم الدهر وحديثه استطاعت ان تنجب امثال هاتيك النساء الفضليات .

وهذه لعمري ظاهرة شموخ ورفعة نكاثر بها على الزمان ونفاخر ففي مساجلات ليلى الاخيلية ومطارحات فضل الشاعرة ورثاء الخنساء وبطولة بنت الأزور وشمم بنت الصديق ام عبد الله بن الزبير وأدب باحثة البادية وقصائد التيمورية وأمثال ذلك كثير لا يحصيه عد في كتاب الاستاذ كحالة — ما يحفز المرأة العربية المعاصرة ويهيب بها لنهضة شماء شاملة تسير فيها على سنن الغوابر من هؤلاء النساء البواهر فتعود اليها أمجادها .

فأنا أكبر صنع السيد عمر رضا كحالة الذي دل مؤلفه على حسن اختيار وبراعة تنقيب وأشكر المكتبة الهاشمية التي أنفقت على طبع الكتاب في هذا الزمن العصيب الذي اشتدت فيه ازمة الطباعة والورق .

وداد سكاكيني

آراء وأنباء

تراجم الرجال

تاريخ القرن الثالث عشر — إلى رجال العلم وحملة الأقلام

لا يخفى ان اول من صنف في تراجم الرجال من علماء وادباء وامراء ووجهاء هو قاضي القضاة ابن خلكان الذي بدأ تاريخه من الهجرة النبوية وانتهى فيه الى اثناء قرنه السابع ، ثم جاء بعده الإمام الحافظ ابن حجر فوضع مصنفاً في تراجم رجال القرن الثامن من ٧٠١ — ٨٠٠ ثم تلاه العلامة الحافظ السخاوي فصنف كتاباً في تراجم رجال القرن التاسع من ٨٠١ — ٩٠٠ ثم جاء العلامة نجم الدين الغزي فألف تاريخه في رجال القرن العاشر من ٩٠١ — ١٠٠٠ ثم تلاه الأديب الكبير السيد محمد امين المحبي فوضع مؤلفاً في تراجم رجال قرنه الحادي عشر من ١٠٠١ — ١١٠٠ ثم جاء بعده مفتي دمشق الاسبق السيد محمد خليل المرادي فوضع تاريخاً لرجال قرنه الثاني عشر من ١١٠١ — ١٢٠٠ وقد طبع اكثر هذه الكتب وانتفع بها .

ولقد كان هذا العاجز منذ أربعين سنة مولعاً بإكمال هذه السلسلة التاريخية داعياً إلى وضع تاريخ لرجال القرن الثالث عشر من ١٢٠١ — ١٣٠٠ فجمعت في نحو سنتين نحو مائتي ترجمة بيضتها في مجموع أحفظه حتى الآن وفيه الكثير من اسر دمشق ومصر ونابلس وحمص وقليل من علماء العراق والحجاز واليمن وحلب وحماة وطرابلس ثم فترت الهمة فكنت في هذه المدة الطويلة ألحق بذلك المجموع مايقع في يدي من التراجم كلما سنحت لي فرصة ، وربما بلغ الجميع حتى الآن مايزيد على ثلاثمائة ترجمة لمشاهير القرن الثالث عشر ، واني اعتقد بان مجموعي لم يزل ناقصاً من تراجم بعض رجال ذلك القرن ، وهذا ما يدعوني الى ان اعلن على صفحات الجرائد والمجلات العلمية رجائي من رجال العلم وحملة الأقلام بأن يتحفوني بما لديهم وما تصل اليه ايديهم من تراجم من وقعت وفاتهم في القرن المذكور من سنة ١٢٠١ — ١٣٠٠ بما يوافق نهج المحبي والمرادي المذكورين اتماماً لهذه السلسلة التاريخية البديعة فان في ذلك تخليد ذكرى الأسلاف الصالحين والأجداد .

محمد جميل الشطي

عُدى وعِدى

قرأت في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي كلمة الزميل الاستاذ المغربي المعنونة بـ (الراديو وأثره في نشر اللغة) ولما بلغت الى تعبير (الديبلوماسيين) الجديد وتقسيمهم الناس الى محارب وحيادي او مسالم ولا محارب واقتراحه استعمال عُدى مضمومة العين للمحارب وعِدى مكسورة العين للامحارب أعجبت بما اتفق له من وقوع نظره على هاتين الكلمتين اللتين تصلحان للقيام مقام كلمتي (المحارب) و (اللامحارب) وقلت رب اتفاق خير من تعمد ورب صدفة خير من ميعاد.

رأى هذه التفرقة بين هذين الحرفين في محيط المحيط للبستاني وفي أقرب الموارد وانه بعد مراجعة اللسان والتاج والصحاح والاساس والمصباح لم يعثر في هذه المعاجم على هذه التفرقة وبقي في نفسه شيء لعدم وقوفه على المصدر الذي اعتمده صاحبا محيط المحيط واقرب الموارد في هذه التفرقة فذكرت انني كنت قد وقفت على هذه التفرقة في عهد غير بعيد في المخصص في السفر الثالث عشر الصفحة ١٣٣ من المخصص:
«ابن السكيت: قوم عِدى وعُدى بالكسر والضم فاذا أدخلوا الهاء ضموا أوله فقالوا: عُداة. يحيى: العُدى بالضم الأعداء الذين نقاتلهم. وبالكسر الذين لا نقاتلهم. حكاه عنه ابن جني»

التشاوس والتضارس

وفي هذه الصفحة من هذا السفر ما يقوم مقام (المحارب) و (اللامحارب) تشاوس القوم تعادوا. وتضارس القوم تعادوا وتحاربوا

سليمان ظاهر

استدراك

وقعت في صدر الجزء الأول هفوات في أسماء اعضاء المجمع دعا اليها انقطاع المواصلات بين البلاد فدخل الاستاذان الشيخ خليل الخالدي والدكتور سعيد ابو جمرة في الراحلين وما زالا ولله الحمد في الحياة مدّ الله في عمرهما. وسقط اسم الاستاذ الشيخ محمد بهجت الاثري من بين اعضاء بغداد وهو مازال عضواً مؤازراً وما نسي القراء ايادية البيض على الآداب.



الجزء العاشر تشرين الاول سنة ١٩٤١ شوال سنة ١٣٦٠

ابن حزم في (سير النبلاء)

٢

[مؤلفاته]

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان احد المجتهدين : « مارأيت في كتب الإسلام من العلم مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفق الدين .»

قلت : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما السنن الكبير للبيهقي ورابعهم [كذا] التمهيد لابن عبد البر . فمن حصل هذه الدواوين وكان من أذكياء المفتين ، وادمن المطالعة فيهم [كذا] ، فهو العالم حقاً .

ولابن حزم مصنفات جليلة اكبرها :

كتاب الإيصال الى فهم كتاب الخصال (خمسة عشر الف ورقة) — وكتاب الإيصال الحافظ لجمل شرائع الاسلام (مجلدان) — وكتاب المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار (ثماني مجلدات) — وكتاب حجة الوداع (مئة وعشرون ورقة) — وكتاب قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي (مجلد) — وكتاب الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض

عنها (يكون عشرة آلاف ورقة لكن لم يتمه) — و كتاب الجامع في صحيح الحديث بلا أسانيد — و كتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية — و كتاب ما انفرد به مالك او ابو حنيفة او الشافعي — ومختصر الموضح لأبي الحسن المغلس[1] الظاهري (مجلد) — و كتاب اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداوود — و كتاب التصفح في الفقه (مجلد) — و كتاب التبيين في هد[2] علم المصطفى أعيان المنافقين (ثلاثة كراريس) — و كتاب الإملاء في شرح الموطأ (الف ورقة) — و كتاب الإملاء في قواعد الفقه (الف ورقة أيضاً) — و كتاب الإجماع (مجيليد) — و كتاب الفرايض مجلد — و كتاب الرسالة البلقا في الرد على محمد[3] عبد الحق بن محمد الصقلي (مجيليد) — و كتاب الإحكام لأصول الأحكام (مجلدان) — و كتاب الفصل في الملل والنحل (مجلدان كبيران) — و كتاب الرد على من اعترض على (الفصل) له — و كتاب اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين (مجلد كبير) — و كتاب

---

(١) هو أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الداوودي الظاهري البغدادي الفقيه أحد علماء الظاهر وإليه انتهت رياسة الداوديين في وقته . ولم ير مثله فيما بعد وكان فاضلاً عالماً نبيلاً صادقاً ثقة مقدماً عند جميع الناس . ومنزله ببغداد على نهر مهدى يقصده العالم من جميع البلدان . توفي سنة ٣٢٤ وله كتاب الموضح (جوابات) الذي اختصره ابن حزم — الفهرست ص ٣٠٦ (سنة ١٣٤٨هـ) وشذرات الذهب

(٢) كذا في الأصل ولعلها زائدة أو محرفة عن (هل)

(٣) كذا ولم نهتد إلى معرفته فيما بين أيدينا من المظان ، وقد أدرنا الاسم على كل الوجوه التي نقدر أنه مصحف عنها : فتشنا عن محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد عبد الحق فلم نجد من يمكن أن يكون مقصوداً ولو بإهمال اسم الأب غير أبي محمد عبد الحق بن هرون الفقيه الصقلي احد المشايخ الكبار ، رحل إلى المشرق وأخذ عنه كثيرون منهم سليمان بن يحيي بن عثمان بن أبي الدنيا أحد العدول بقرطبة ، وخلف بن إبراهيم المقري المعروف بابن الحصار الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة فقد رحل إلى صقلية وجالس فيها عبد الحق هذا — انظر (المكتبة الصقلية المطبوعة سنة ١٨٨٧ ليبزيغ) : الذيول ص ٤٦ ، ٤٨ .

الرد على ابن زكريا الرازي (مئة ورقة) — وكتاب الترشيد في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات (مجلد) — وكتاب الرد على من كفر المتأولين من المسلمين (مجلد) — وكتاب مختصر في علل الحديث (مجلد) — وكتاب التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية (مجلد) — وكتاب الاستجلاب (مجلد) — وكتاب نسب البربر (مجلد) — وكتاب نقط العروس (مجيليد) ... وغير ذلك.

ومما له في جزء أو كراس:

مراقبة أحوال الإمام [1] من ترك الصلاة عمداً — ورسالة المعارضة — [1] قصر الصلاة — ورسالة التأكيد — [1] ماوقع بين الظاهرية وأصحاب القياس — وفضائل الأندلس — والعتاب على أبي مروان الخولاني — ورسالة في معنى الفقه والزهد — ومراتب العلماء وتواليفهم — والتلخيص في أعمال العباد — والإظهار لما شنع به على الظاهرية وزجر الغاوي (جزءان) — والنبذ الكافية — والنكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد (مجلد صغير) — والرسالة اللازمة لأولي الأمر — ومختصر الملل والنحل (مجلد) — والدرة فيما يلزم المسلم (جزءان) — ومسألة في الروح — والرد على إسماعيل اليهودي الذي ألف في تناقض آيات النصائح المنجية — والرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد — ومسألة الإيمان — ومراتب العلوم — وبيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل — وترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين — وعدد

(١) لعل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ

مالكل صاحب في مسند بقي —[1] تسمية شيوخ مالك —[1] السير والأخلاق (جزءان) — وبيان الفصاحة والبلاغة[2] رسالة في ذلك لابن حفصون — ومسألة هل السواد لون أو لا - والحد والرسم - وتسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر — وشيء في العروض — ومؤلف في الظاء والضاد — والتعقب على الاقليلي في شرحه لديوان المتنبي — وغزوات المنصور بن أبي عامر — وتأليف في الرد على أناجيل النصارى ... وأشياء سوى ذلك .

ولابن حزم رسالة في الطب النبوي ذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها :

مقالة السعادة — ومقالة في شفاء الضد بالضد — وشرح فصول بقراط - وكتاب بلغة الحكيم — وكتاب حد الطب — وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة — وكتاب في الأدوية المفردة — ومقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب — ومقالة النحل .

[شيء من ابتلائه بالناس]

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء وشرد عن وطنه فنزل بقرية له وجرت[3] له أمور ، وقام عليه جماعة من المالكية وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومناقرات ، ونفروا منه ملوك الناحية فأقصته الدولة وأحرقت مجلدات من كتبه ، وتحول إلى بادية لبلة في قريته .

قال ابو الخطاب بن دحية : كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان

(١) لعل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ أيضاً (٢) لعل هنا نقصاً (٣) في الأصل : وجردت

وأصابه زمانة وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر . قلت : وكذلك كان الشافعي رحمه الله يستعمل اللبان لقوة الحفظ فولد له رمي الدم .

قال ابو العباس بن[1] العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين . »

[عود إلى سبب طلبه العلم]

وقال أبو بكر محمد بن[2] طرخان التركي : قال لي الإمام ابو محمد عبد الله ابن محمد يعني والد أبي بكر بن العربي : « أخبرني أبو محمد بن حزم : أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع ، فقال له رجل : قم فصلّ تحية المسجد — وكان قد بلغ ستاً وعشرين سنة — . قال : فقمت فركعت فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي : اجلس ليس ذا وقت صلاة ، وكان بعد العصر . قال : فانصرفت وقد خزيت وقلت للأستاذ الذي رباني : دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون ، قال ، فقصدته وأعلمته بما جرى فدلني على موطأ مالك ، فبدأت به عليه ، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحواً من ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة . »

[سماع ابن العربي عليه]

قال أبو بكر : ثم قال لي ابن العربي : « صحبت ابن حزم سبعة أعوام وسمعت منه جميع مصنفاته سوى المجلد الأخير من كتاب الفصل وهو من ستة مجلدات وقرأنا عليه من كتاب الإيصال أربع مجلدات في سنة ست

(١) كلمة ابن ساقطة من الأصل والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي

(٢) في الأصل : محمد طرخان ، والتصويب عن إرشاد الأريب (٥:٨٨) طبع (أوروبا)

وخمسين وأربعمائة ، وهو أربعة وعشرون مجلداً ، ولي منه إجازة غير مرة .»

[علمه وبلواه بالناس]

قال أبو مروان بن حيان : « كان ابن حزم رحمه الله حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله كتب كثيرة لم يخل فيها من غلط لجرأته في التسور على الفنون لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا انه زل هنالك ، وضل في سلوك المسالك ، وخالف ارسطاطاليس واضع الفن مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض ، ومال أولاً إلى النظر على رأي الشافعي وناضل عن مذهبه حتى وسم به ، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء ، وعيب بالشذوذ ، ثم عاد إلى قول أصحاب[1] الظاهر فنقحه وجادل عنه وثبت عليه إلى أن مات . وكان يحمل علمه ويجادل عنه من خالفه ، على استرسال في طباعه وبذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء : « لَيبيِّنُنَّهُ لِلناسِ ولا يَكتمونَه[2] » فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا بتدريج ، بل يصك به من عارضه صك الجندل ، وينشقه إنشاق الخردل ، فتنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب حتى استهدف لفقهاء وقته فتمالؤوا[3] عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو منه ؛ فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن

(١) في الأصل : حول ، والصواب ما أثبتناه مراعين السياق وما في المصادر

(٢) أثبتها بياء الغيبة في الفعلين كما هي في الأصل لأنها قراءة أبي عمرو بن العلاء وابن كثير وشعبة ، وإن كانت قراءتنا اليوم للآية بتاء الخطاب كما قرأها حمزة والكسائي ونافع والبقية ، انظر ص ١١٧ (على الهامش) وص ٢١٧ من شرح ابن القاصح على الشاطبية (طبع سنة ١٢٩٣ ﻫ)

(٣) في الأصل : فتالوا ولا معنى لها والتصحيح عن تذكرة الحفاظ

بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره : بلدة من بادية لبلة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع ، يبث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة : يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ؛ كمل من[1] مصنفاته وقر بعير لم يعدُ أكثرها [عتبة][2] باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية ، وأكثر معايبه – زعموا – عند المنصف[3] جهله بسياسة العلم التي هي أعوص [من إتقانه[4]] وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه في غماره . وعلى ذلك فلم يكن بالسليم[5] من اضطراب رأيه ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فينفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . وكان مما يزيد في شينه تشيعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم واعتقاده لصحة إمامتهم ، حتى لنسب إلى النصب .»

[عود إلى مؤلفاته]

قلت : ومن تواليفه كتاب تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل . وقد أخذ المنطق – أبعده الله من علم – عن محمد بن الحسن المذحجي وأمعن فيه فزلزله في أشياء .

[رأي الذهبي فيه]

ولي أنا ميل إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل والمسائل البشعة في

(١) في الأصل : من كل وهي تحريف وإن كان لها وجه متكلف إلا أن كلمة ابن حيان هذه هي على ما أثبته كما في المصادر وكما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه (٢) الزيادة عن تذكرة الحفاظ
(٣) في الأصل وفي تذكرة الحفاظ : المصنف والتصحيح عن إرشاد الأريب
(٤) محل هاتين الكلمتين بياض في الأصل الأم ، أكملنا النقص من إرشاد الأريب
(٥) في الأصل : بالتسليم والتصحيح عن إرشاد الأريب

الأصول والفروع . وأقطع بخطئه في غير ما مسألة ؛ ولكن لا أكفره ولا أضلله وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين ، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه. ورأيته قد ذكر قول من يقول : أجل المصنفات الموطأ فقال :

« بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحا البخاري ومسلم وصحيح ابن السكن ومنتقى ابن الجارود والمنتقى لقاسم بن أصبغ ومصنف أبي جعفر الطحاوي . (قلت : ماذكر سنن ابن ماجه ولا جامع أبي عيسى فإنه مارآهما ولا أدخلا إلى الأندلس إلا بعد موته .) ثم قال : ومسند البزار ومسند ابن أبي شيبة ومسند احمد بن حنبل ومسند إسحق ومسند الطيالسي ومسند الحسن بن سفيان ومسند ابن سنجر [(١)] ومسند عبد الله بن محمد المسندي ومسند يعقوب ابن شيبة ومسند علي بن المديني ومسند ابن أبي غرزة وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم صرفاً .

ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف بقي بن مخلد ، وكتاب محمد بن نصر المروزي وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر ، ثم مصنف حماد بن سلمة وموطأ مالك بن أنس وموطأ ابن أبي ذيب وموطأ ابن وهب ومصنف وكيع ومصنف محمد بن يوسف الفريابي ومصنف سعيد بن منصور ومسائل أحمد بن حنبل ، وفقه أبي عبيد وفقه أبي ثور . »

قلت : ما أنصف ابن حزم ، بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبي داوود والنسائي ، لكنه تأدب وقدم المسندات النبوية الصرف ؛ وإن للموطأ لموقعاً في النفوس ومهابة في القلوب لايوازيها شيء .

---

(١) في الأصل : ابن شجر وهو تصحيف والتصحيح عن الرسالة المستطرفة للكتاني

[مرويات الذهبي بالسند إلى ابن حزم]

كتب إلينا المعمر العالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون من مدينة تونس[1] عام سبعمائة عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي عن شريح بن محمد الرعيني : أنبأنا ان أبا محمد بن حزم كتب إليه قال :

أنبأنا يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود أن[2] قاسم بن أصبغ أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله : أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصوم جُنة » أخرجه مسلم عن أبي سعيد الأشج عن وكيع . وبه[3] قال ابن حزم : أخبرنا أحمد بن محمد الجسور ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي دليم[4] : أخبرنا محمد بن وضاح : أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة : أخبرنا يزيد بن هرون : أخبرنا حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر[5] قال : « إنما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج وأهللنا به معه ، فلما قدم قال : (من لم يكن معه هدي فليحلل) فأحل الناس إلا من كان معه هدي ، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هدي ولم يحل . »

وبه قال ابن حزم : حدثني أحمد بن عمر العذري : أخبرنا عبد الله بن الحسين بن عقاب : أخبرنا عبيد الله بن محمد السقطي : اخبرنا أحمد بن جعفر ابن سلم : أخبرنا عمر بن محمد الجوهري : أخبرنا أحمد بن محمد الأثرم :

(١) في تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩ أبو محمد بن هارون بن يونس ، وهو تصحيف .

(٢) في تذكرة الحفاظ : أنبأنا قاسم ..

(٣) أي بالسند المتقدم وهو اصطلاح لعلماء الحديث . وسيمر بك مرتين أخريين

(٤) في الأصل : بن وليم ، والتصويب عن الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٢٤

(٥) في الأصل أبي عمر وهو خطأ لأن المزني — كما في تهذيب التهذيب — روى عن ابن عمر

أخبرنا أحمد بن حنبل : أخبرنا هشيم : أنبأنا حميد : أخبرنا بكر بن عبد الله : سمعت أنس بن مالك قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعاً . قال بكر : فحدثت بذلك ابن عمر فقال : « لبى بالحج وحده . »

وقع لنا هذا في مسند أحمد ، فأنا وابن حزم فيه سواء .

[من شعره]

وبه قال ابن حزم فيما أحرق له المعتضد بن عباد من الكتب يقول :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رق[1] وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر

* كذاك النصارى يحرقون – إذا علت ... أكفهم – القرآن في مدن الثغر

ولابن حزم :

* أشهد الله والملائك أني ... لا أرى الرأي والمقايس دينا

* حاش لله ان أقول سوى ما ... جاء في النص والهدى مستبينا

* كيف يخفى على البصائر هذا ... وهو كالشمس شهرة ويقينا

فقلت مجيباً له :

* لو سلمتم من العموم الذي نعـ ... ـلم قطعاً تخصيصه ويقينا

* وترطبتم فكنتم يبتسم[1] ... لرأينا لكم شفوفاً مبينا

(١) في الأصل : ورق ، والتصحيح عن إرشاد الأريب وغيره

(*) الأبيات المصحوبة بهذه العلامة تفردت بها هذه الرسالة ولم أجدها في مصدر آخر مما كنت اطلعت عليه حين دراستي ابن حزم ، وهي مزية جديرة بالتنبيه عليها فإن بقية المصادر تعد أمهات في هذا الموضوع (٢) كذا في الأصل ، ولم نهتد إلى الصواب فيه ولا وجدنا البيتين في مصدر من المصادر.

ولابن حزم :

مناي من الدنيا علوم أبثها   وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي   تناسى رجال ذكرها في المحاضر
* وألزم أطراف الثغور مجاهداً   إذا هيعة ثارت فأول نافر
* لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر   بسمر العوالي والرقاق البواتر
* كفاحاً مع الكفار في حومة الوغى   فأكرم موت للفتى قتل كافر
* فيا رب لا تعجل حمامي بغيرها   ولا تجعلني من قطين المقابر[1]

ومن شعره رحمه الله :

هل الدهر إلاّ ما عرفنا وأدركنا   فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة   تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف   نودّ لديه أننا لم نكن كنا
حنين لما ولى وشغل لما أتى   وهمّ بما نخشى فعيشك لا يهنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة   وفات الذي كنا نلذ به عنا
كأن الذي كنا نسر بكونه   إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله على سبيل الدعابة وهو يماشي أباعمر بن عبد البر وقد رأى شاباً مليحاً فأعجب ابن حزم فقال أبو عمر : « لعل ما تحت الثياب ليس هناك » فقال :

وذي عذل فيمن سباني حسنه[2]   يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره   ولم تدر كيف الجسم، انت قتيل؟

(١) في الأصل : المنابر ولامعنى لها ولعل (تعجل) في أول البيت أصلها (تجعل) (٢) في الأصل : فيما سباني حبه ، ولم نرتضها لضعفها ولترجح تصحيفها لدينا فأثبتنا الرواية المجمع عليها في المصادر كافة

فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد … فعندي رد لو أشاء طويل

ألم تر أني ظاهريّ وأنني … على ما بدا حتى يقوم دليل

وأنشد أبو الفهم بن أحمد السلمي : أنشدنا ابن قدامة : أنشدنا ابن البطي : أنشدنا ابو عبد الله الحميدي : أنشدنا ابو محمد علي بن أحمد لنفسه :

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت … فالدهر ليس على حال بمترك

ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة … وتارة في ذرى تاج على ملك

وشعره فحل كما ترى ، وكان ينظم على البديهة[1] ومن شعره :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة … ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع … لجد على ما ضاع من ذكري النهب

ولي نحو أكناف العراق صبابة … ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم … فحينئذ يبدو التأسف والكرب

هنالك يدرى أن للبعد قصة … وأن كساد العلم آفته القرب

وله :

* أنائم انت عن كتب الحديث وما … أتى عن المصطفى فيها من الدين

* كمسلم والبخاريّ اللذين هما … شدا عرى الدين من نقل وتبيين

* أولى بأجر وتعظيم ومحمدة … من كل قول أتى من رأي سحنون[2]

* يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما … في نصر دينك محضاً غير مفتون

(١) في الأصل : البديه، ولم أرها في كتب اللغة . (٢) سحنون — على ما في قاموس الأعلام — هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون ؛ قاض ، فقيه ، انتهت إليه الرياسة في العلم بالمغرب . كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله . أصله شامي من حمص، ومولده في القيروان وولي القضاء سنة ٢٣٤هـ فاستقر إلى إن مات . كان رفيع القدر عفيفاً أبي النفس مات سنة ٢٤٠هـ وله ثمانون سنة .

[من كلامه]

قال ابن حزم في تراجم أبواب صحيح البخاري: «منها ما هو مقصور على آية إذ لا يصح في الباب غيرها، ومنها ما بينه بتبويبه على أن في الباب حديثاً يجب الوقوف عليه، لكنه ليس من شرط ما ألف عليه كتابه، ومنها ما يبوب عليه ويذكر نبذة من حديث قد سطره في موضع آخر، ومنها أبواب تقع بلفظ حديث ليس من شرطه ويذكر في الباب ما هو في معناه.»

وقال في أول الإحكام[1]: «أما بعد فإن الله ركب في النفس الإنسانية قوى مختلفة، فمنها عدل يزين لها الانصاف ويحبب إليها موافقة الحق، قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ [وَٱلْإِحْسَانِ]» وقال: «[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا] كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ [وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ» ومنها غضب وشهوة يزينان لها الجور ويعميانها عن طريق الرشد] وقال [تعالى]: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ [فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ] وقال [تعالى]: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» فالفاضل يسر[2] لمعرفته [بمقدار ما منحه الله تعالى] والجاهل يسر لما[3] لا يدري حقيقة وجهه ولما[3] فيه وباله، [في أخراه وهلاكه في معاده] ومنها فهم يليح لها[4] الحق من قريب وينير [لها في] ظلمات المشكلات فيرى به[5] الصواب ظاهراً جلياً، ومنها جهل يطمس[6] عليها الطرق[7] ويساوي عندها [بين] السبل فتبقى

(١) النقل الآتي كثير التحريف وقد أصلحناه وأكملنا نقصه من مقدمة الإحكام ص ٤ - ٥ [مطبعة السعادة سنة ١٣٤٥] وما بين معقوفتين هو ما نقص في نسختنا. (٢) في الأصل: يسير به. (٣) في الأصل: وبما. (٤) في الأصل: له. (٥) في الأصل: بها (٦) في الأصل: يطش ولا معنى لها. (٧) في الأصل: الطريق.

النفس في[1] حيرة تتردد وفي ريب تتلدد ويهجم بها على احد الطرق المجانبة للحق [المنكبة عن الصواب] تهوراً وإقداماً [او جبناً او إحجاماً او إلفا وسوء اختيار]، قال تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» [وقال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ] ومنها قوة التمييز التي سماها الأوائل المنطق، فجعل لها خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه [عز وجل] وإلى معرفة الأشياء على ماهي عليه، وإلى إمكان التفهم [الذي به ترتقي درجة الفهم ويتخلص من ظلمة الجهل] فبها تكون معرفة الحق من الباطل، [قال تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ»] ومنها قوة العقل التي تعين النفس المميزة على نصرة العدل [وعلى إيثار ما دلت عليه صحة الفهم وعلى اعتقاد ذلك علماً وعلى إظهار باللسان وحركات الجسم فعلا؛ وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموفقة لطاعته على كراهية الحود عن الحق وعلى رفض ماقاد إليه الجهل والشهوة والغضب المولد للعصبية وحمية الجاهلية] فمن[2] اتبع ما أناره له العقل الصحيح نجا وفاز، ومن عاج عنه هلك [وربما أهلك]. قال تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» فأراد بذلك العقل. أما المضغة المسماة قلباً[3] فهي لكل أحد، [متذكر وغير متذكر ولكن لما لم ينتفع] غير العامل [بقلبه صار كمن لا قلب له.»

وكلام ابن حزم كثير ولو أخذت في إيراد طرفه وماشذ به لطال الأمر.

(١) في الأصل: في النفس حيرة. (٢) في الأصل: فتى (٣) في الأصل: أما مضغة القلب

[عود إلى مولده]

قال ابو القاسم بن بشكوال الحافظ في الصلة له: قال القاضي صاعد ابن أحمد: «كتب إليّ ابن حزم بخطه يقول: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب، وهو اليوم السابع من نوبر.»

[وفاته]

قال صاعد: «ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين واربعمائة فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً رحمه الله تعالى»

[عود إلى شعره]

ومن نظم أبي محمد بن حزم:

* لم أشك صداً ولم أذعن بهجران ولا شعرت مدي دهري بسلوان
* أسماء لم أدر معناها ولا خطرت يوماً عليّ ولا جالت بميداني
* لكنما دائي الأدوى[1] الذي عصفت عليّ أرواحه قدماً فأعياني
* تفرق لم تزل تسري طوارقه إلى مجامع أحبابي وخلاني
* كأنما البين بي يأتم حيث رأى لي مذهباً فهو يتلوني ويغشاني
* وكنت أحسب عندي للنوى جلداً إذا عتا[2] في فؤادي شجوها العاني
* فقابلتني بألوان غدوت بها مقابلا من صباباتي بألوان

(١) في الأصل: داي الأدواء التي

(٢) في الأصل: عنى. وليست هذه الأبيات في مصدر آخر فنقابلها به فأثبتنا ما رجحناه

[من مات في سنة وفاته]

وممن مات مع ابن حزم في السنة : الحافظ أبو الوليد الحسن بن محمد الدربندي[1] ، والفقيه ابو القاسم سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج قاضي الجماعة بقرطبة ، والحافظ عبد العزيز محمد بن محمد بن عاصم النخشبي[2] ، وشيخ العربية أبوالقاسم عبد الواحد بن علي بن برهان ببغداد ، ومسند الوقت أبوالحسين محمد بن أحمد بن محمد بن [أحمد بن[3]] حسنون النرسي ، والمحدث أبو سعيد محمد بن علي بن محمد الخشاب النيسابوري ، والوزير عميد الملك محمد بن منصور الكندري .

[عود إلى شعره]

ولابن حزم

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت ... أقوالهم وأقاويل الورى[4] محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن[4]
وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس[4] أقول بها ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يابرد ذا[5] القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً ... من مات من قوله عندي له كفن

« تمت الرسالة »

---

(١) في الأصل : ابن الوليد الحسن بن محمد الدزندي والتصويب عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩

(٢) في الأصل اليخشي والتصويب عن شذرات الذهب (٣) الزيادة عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩

(٤) انظر هذه القصيدة كاملة في كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) ص ١٤١ . وفيها هناك بدل الورى : المدى ، وبدل فتن : أفن (ص ٦٧) ، وبدل لمقاييس أقول : نحو آراء يقال .

(٥) في الأصل : ذي . والتصحيح عن المصدر السابق

ممن سمع هذه الرسالة على الذهبي

نص السماعين اللذين ختمت بهما هذه الرسالة

١ — قال الذهبي : سمع من لفظي هذه الترجمة المولى العلامة قاضي القضاة حسام الدين حسن بن رمضان القرمي ، وفتاه سيف الدين بهادر ، والشيخ عماد الدين ابو بكر ابن أحمد بن أبي الفتح بن السراج ، والشيخ أمين الدين محمد بن علي بن حسن الأ ألفي[1] المالكي : في شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة . وكتب مؤلفها محمد بن عثمان بن الذهبي عفا الله عنه . ه »

٢ — مكتوب على هامش الأم ما لفظه :

سمع ترجمة ابن حزم رحمه الله على الشيخ شمس الدين الذهبي صاحب التاريخ : الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن عبد الله بن المحب والفقيه الفاضل علاء الدين علي بن عبد المؤمن بن علي المغربي . وكل الأسماع بقراءته في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بدمشق ، ولها[2] ولنا جميع التاريخ . ولله الحمد وصلى الله على سيدنا محمد وآله . وكتب إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن جماعة * .

سعيد الافغاني

---

(١) في الأصل : أمير الدين... الألعى ، والتصويب عن شذرات الذهب ٦ : ٢٩٢ وذيول تذكرة الحفاظ ص ١٦٨ والمحدث المذكور مات سنة ٧٨٦

(٢) نرجح أن (ولها ولنا) مصحفة عن (وأجاز لنا) . والمقصود بقوله (جميع التاريخ) : تاريخ الإسلام الكبير للذهبي ومنه أجزاء في المكتبة الأحمدية بحلب

(*) عثرنا بعد طبع الرسالة على اسم كتابين للذهبي فآثرنا التنبيه عليهما هنا تذييلاً للفصل الخاص بمؤلفاته: في المكتبة الصقلية (Alla Biblioteca Arabo - Sicula) (ليبزيغ ١٨٨٧ م) ص م٦٤ : أن للذهبي مختصر كتاب (إنباه الرواة على أنباء النحاة) تأليف أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني .

وفي ص ٤ من مقدمة (كتاب المغني والشرح الكبير — مطبعة المنار سنة ١٣٤١ ه) : ان الذهبي أفرد بالتأليف سيرة الشيخ موفق الدين صاحب (المغني) أحد الكتب الأربعة الجليلة التي لا غنى للمجتهد ولا للمفتي عنها — على ما مر بك من رأي الذهبي عند أول الكلام على مؤلفات ابن حزم . وأرجح أن هذه السيرة مما ضمنه أيضاً كتابه الجليل (سير النبلاء) .

مميزات بني أمية

٢

خصائص قواد الأمويين وعمالهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط ممتازين بأمور تفردوا بها على من سواهم بل كان رجالهم وقوادهم وعمالهم لا يشبهون في هذا المعنى عمال بني العباس . فان عمال العباسيين كانوا يشتغلون لأنفسهم على الغالب ، وعمال الأمويين يشتغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل ما يجب ان يعمل لدولته ورأينا احمد بن طولون في الدور العباسي الثاني يعمل لنفسه اولاً ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيماً جداً لم يؤثر بعضه عن عامل من عمال بني أمية . وعلى ماظهر من تعصب الأمويين ، وكانوا لا يوسدون الولايات الا للعرب ، ولا يأمنون على سياستهم الا العرب ، كنت تراهم في المسائل الأخرى أعجوبة في تساهلهم . آخذ بعضهم عبيد الله بن زياد لاعتماده على الفرس في مسائل الأموال فقال مدافعاً عن نفسه : كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فان أغرمت عشيرته أو طالبته اوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، واهون بالمطالبة منكم ، مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا احداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الأمويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة ما تدهش من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياسته بأمور لا يخطر بالبال ان مثله يفكر فيها ، اشتهر باصلاح الموازين والخراج والزراعة ، ووضع الحركات والاعجام في المصاحف ، لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن واتخذ دار الضرب اسك النقود فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من

التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم اذن للتجار وغيرهم في ان تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من الاجرة للصناع والطباعين وختم ايدي الطباعين . وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمرة غير المخروزة والمدهونة وغير ذوات الجآجئ (واحدها جؤجؤ وهو الصدر او عظامه شبهوا به مقدم السفينة) وكان اول من عمل المحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرّجاز الأكرياء فقال :

أول عبدٍ عَمل المحاملا أخزاه ربي عاجلاً وآجلا

وكان من زياد بن ابي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بنى في البصرة دوراً واحياء ومساجد وحفر ترعًا وانهاراً وكل ما بنى فيها او صنع فانه نسب الى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرّة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، واصلح العراق بأهل العراق ، وترك اهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان اخو معاوية واخطب رجل في بني أمية كان يطفئ الفتن ببلاغته اكثر مما يطفئها بجيش دولته . وهذا موسى بن نصير فاتح الاندلس ما التوى له علم منذ خرج من مصر في جيش ضئيل حتى وصل الى الاندلس ففتحها ، واذا قرأتم ترجمته بامعان تقولون معي ان الولادة ماولدت اعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعذر في ساعة ضيقة كهذه ان نتناول الكلام على رجال القوم ونذكر بعض مالهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالاشارة الى واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج الى دراسة خاصة مشبعة ، ونعني به مسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة والعلم والادب . غزا الروم غير مرة واثخن فيهم . وفتح الامهات من مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقان وارمينيـة ، فأبان في كل مكان عن كفاءة منقطعة النظير وعن حب للخير غريب في بابه ، واوصى بجزء من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً انهم اهل صناعة مجفوة . ولولا

انه ابن أمَة لكان من المحتم ان يجلس على عرش الخلافة الأموية كسائر اخوته الأجلاء الذين بيضوا وجه التاريخ الأُموي والاسلامي باعمالهم الجليلة ٠

التنظير بين الأُمويين والعباسيين

حكم الأُمويون في الشرق الف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة قرون ، وكانوا في الشرق والغرب يتحرون جداً في الأموال لا يأخذ الخليفة مالا يحلُّ ٠ وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جبايات الأمصار ان يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال واحياناً اربعون رجلاً قساماً من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد مافيها دينار ولا درهم الا أُخذ بحقه وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه ، اي فضل أعطيات الاجناد وفرائض الناس ٠ وكانوا لا ينقلون مالاً من بلد الى بلد حتى تسد ثُغورُه وخصاصة اهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقلوه الى البلد الآخر الذي يليه ٠

اما جباية العباسيين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وانواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكسر الخراج ويكثر عيث العمال وعبثهم بها ٠ وما عهد عند الأمويين نزول خليفة عن اقليم او عن قطر لعامل من عماله ، يجبيه على هواه لحسابه الخاص ، ويعهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعاء لدولته ٠ وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تمزيق دولتهم وفض عرى كلمتهم وفي ايام بني العباس كثرت المصادرات ، وكان يصادر العمال كما تصادر الرعية ، ويصادر كل من عرفت له ثروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون انواع التعذيب ليسلبوهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور قلما عهد في دولة بني أُمية ، ذلك لأن عمالهم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وارباب البيوتات من العرب ٠ وقل أن عهدت السرقة في شريف ٠ وما ذكر التاريخ ان قائداً أُموياً او وزيراً أُموياً صودر على مال ، كما كان يصادر قواد العباسيين وولاتهم

ووزراؤهم ؛ ولا سيما في الدور العباسي الثاني ، والسبب في ذلك انتظام طرق الجباية وقلة انواعها عند الأُمويين . وكان هشام بن عبد الملك في تنظيم ميزانية الدولة المثل الأعلى وموازنته خير موازنة عُرفت . ثم الى هذا كانت الأخلاق على العموم في العصر الأموي أرقى مما آلت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الأمويين الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وكلهم غاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغائر والسفاسف . ودخل في عمال العباسيين أخلاط الزّمر ، ومنهم من لا يعرف ابوه ولا أمه ، اوصلته المصادفات الى المراتب العالية ، ومنهم من اظهر الاسلام وابطن خلافه ، كبعض الاتراك والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب او عبادة النيران .

سرّ تفوّق الأُمويين

الذكاء يورّث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورّث لأنه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الأغلب ذكيّ ، وابن البليد بليد على الاكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يجعلون للرجل المنسوب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لأحد اسلافه شيءٌ من المكانة ، والدم الطاهر ينم عن صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرفها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تخير البنات الأصيلات غرام شديد منذ ابعد ازمنة تاريخهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الأمة العربية تعد في هذا المعنى ارستقراطية مع ان اعمالها كلها تدل على تأصل الديموقراطية في دمها . ولذلك رأينا بعض مؤلفي التراجم يحرصون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل ابيه وأمه ، وبهذا ساغ لنا ان نستنتج بأن بني أمية لم يظهر ما ظهر منهم من الصفات الغرّ في الجاهلية والاسلام إلا بدم نقي انتقل من الأجداد الى الأحفاد ، وتسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانتقلت الشجاعة والنجدة في بنيهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا

الاسباب الداعية الى التنويه بالأُمويين

لا أُريد أن اودعكم الآن قبل ان أُفاتحكم بأمر طالما لغط به بعضهم وما اجبتهم عليه ، ذلك ان بعض المنحرفين عن بني أُمية يتهمني بالتشيع لهم ، وأني أُنوه في كل فرصة بحسناتهم ، واغض الطرف عما يتخيله المتخيلون سيئات ، واني أنحي على من ظلموهم وما رحموهم ؛ وما حبي الأُمويين ، علم الله ، الا حب من انعم النظر فيما قيل فيهم ولهم ، ووازن بين اعمالهم واعمال غيرهم ، وايقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سوّد خصومهم من العباسيين والعلويين صحيفتهم في الدهر الغابر لأجل السياسة حتى صار بغضهم الى اليوم مذهباً يدين به من يدين . ويبلغني عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أُمية لبغض بعض الطوائف لهم ، وهذا من اغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالأمر الواقع .

ان حكمي على الأُمويين حكم التاريخ فقط ، ارغب في ان أُنصف دولة احسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب اليها حتى اتقرب من قلبه بما أُدون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الأولى بي ان أُصانع مبغضيهم وهم ملايين اليوم منتشرون في اقطار العالم ولهم حَول وطَول ، فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبحْ بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية واهواء شخصية .

رثاء شوقي للأُمويين

ورحم الله صديقي شوقي يذكر الأُمويين في قصيدته الخالدة في دمشق بقوله :

بنو أُمية للأنباء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

عالين كالشمس في اطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان

يا ويح قلبي مهما انتاب ارسمهم ... سرى به الهمّ او عادته اشجان

بالأمس قمت على (الزهراء) اندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان

في الأرض منهم سماوات وألوية ونيرات وأنواء وعقبان
معادن العز قد مال الرّغام بهم لو هان في تربه الابريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون اسأله هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان



الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض

وتفسير المشكلات

وقفت على مجموع خطي تضم دفتاه كتابين : الكتاب الأول نزهة القلوب لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٢٠

الكتاب الثاني وهو المسمى بـ

(الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض وتفسير المشكلات)

اما الكتاب الأول فلا اعرض للتعريف به لشهرته ولنشره بالطبع ، واما الثاني وهو ما احسب انه غير مطبوع وغير متداول ولم أجد له ذكراً في كشف الظنون ولم يذكر في النسخة التي وقفت عليها اسم مؤلفها ولعل ما أجهل من ذلك مما قد علمه غيري (وفوق كل ذي علم عليم) وها أنا ذا أعرض على قراء مجلة المجمع المفيدة الأعلام وصف نسخته المخطوطة والتعريف بالكتاب

وصف نسخته الخطية

هي ٤٥ صفحة بقطع الربع ورقها عبادي صقيل وخطها من نوع النسخ طول الصفحة ٢٢ س بعرض ١٢ سطور الصفحة ١٩ وكلمات كل سطر من ١١ الى ١٣ تاريخ كتابتها ضحى أربعاء اليوم الثالث من ربيع الآخر سنة ٩٨٥ هـ والناسخ هو مقلد بن قسم الله

التعريف بالكتاب

موضوعه — يفهم من اسمه

مفتتحه — أما بعد حمد الله كما هو أهله ، والصلاة على رسوله سيدنا محمد وآله وصحبه فهذا كتاب أودعته عشرة أنواع من تفسير مشكلات القرآن ومتشابهه يضطر اليها العلماء ، ويحتاج اليها أرباب الكراسي والعظماء ، واختصرته بحسب الطاقة ،

ولخصته وأدمجت فيه ما ذكر مقاتل بن سليمان وتكلمت بما دلني عليه البرهان ، واتضح لي بالأدلة العقلية وبان ٠

ترتيبه — مرتب على مقدمة وفصول عشرة ، أما المقدمة فهي تلخص بذكر حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة وحديث عن علي رضي الله عنه : لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يعرف للقرآن وجوهاً كثيرة

وأما الفصول فالفصل الأول في تفسير كلمات مشتركة تفسر على معنيين أو اكثر وأورد من ذلك ما استغرق خمس صفحات ، والفصل الثاني في تفسير ما يتفق من القرآن وهذا نموذج منه : اعلم ان كل موضع في القرآن وجلت قلوبهم ٠ أو قلوبهم وجلة فمعناه الخوف ٠ و كل ما فيه مردفين ٠ وتترى ٠ ومدرارا ٠ وأبابيل فمعناه التتابع وأورد كل ماجاء من هذا الباب في سبع صفحات

والفصل الثالث في تفسير اشتباه التقديم في الكلام ٠ ونموذج هذا الفصل : قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة ايام و كان عرشه على الماء ٠ وقال في آية أخرى : في ستة أيام ثم استوى على العرش ٠ هاتان الآيتان توقعان في نفس من لا يفهم — التناقض — وليس كذلك فان تفسيرهما مشتبه في وجوه تقديم الكلام ٠ اما تفسير قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش استواء ربانياً لا جسمانياً بل منزهاً عن الاستقرار والجلوس مقدساً عما يخطر بأوهام النفوس استوى على العرش قبل خلق السموات وذلك قوله تعالى : وكان عرشه على الماء يعني قبل خلق الأرض (بيانه) ان يفصل بين قوله (ثم) وبين قوله (استوى) وتقديره استوى على العرش ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام بدليل الآية الأخرى وقد استغرق هذا الفصل خمس صفحات

والفصل الرابع في تفسير وجوه اختلاف المكي والمدني وهو في صفحة ونصف صفحة

والفصل الخامس في تفسير وجوه اشتباه الحالات قوله تعالى : ربنا أمتنا اثنتين

واحييتنا اثنتين وقال في آية أخرى : لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى وهذا يشعر بالتناقض عند من لا يعرف التفسير ولا تناقض فيه من قبل اشتباه تفسيرهما في وجوه الحالات · اما قوله سبحانه : ربنا أمتنا اثنتين الآية معناه كنا نطفاً ميتة لا روح فيها ولا حس لها نخلقنا من تلك النطفة وجعل فيها أرواحاً فهذه موتة وهذه حياة · وشاهد ذلك قوله تعالى للكفار : وكنتم أمواتاً فأحياكم معناه يقول : كيف تكفرون بمن خلقكم وجعل فيكم الأرواح بعد ان كنتم نطفاً ميتة لا حياة فيكم ، ولا ارواح لكم · ثم قال : (ثم يميتكم) يعني عند انتهاء آجالكم في الدنيا ثم يحييكم يوم القيامة للبعث الى الحساب فهاتان موتتان وحياتان · واما قوله سبحانه : لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى · يعني الموت الذي أماتهم في الدنيا بعد ما خلقهم من النطف فليس بعد ان خلقهم من النطف موت غير هذه الموتة الواحدة وهذا الفصل يدخل في صفحتين ونصف صفحة

والفصل السادس في تفسير اشتباه صلات الكلام في القرآن وهو في ثلاث صفحات

والفصل السابع في تفسير وجوه خواص المواطن وهو في نحو سبع صفحات

والفصل الثامن في تفسير اختلاف وجوه المواضع وهو في بعض صفحة

والفصل التاسع في تفسير اختلاف وجوه الحروف وهذا نموذج منه · قوله سبحانه وتعالى : ومن يهدي الله فما له من مضل · وقال في آية أخرى : وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العما على الهدى · اما الأولى فيعني من يهدي الله الى الايمان من الضلالة فينور قلبه بالتصديق وشرحه بالمعرفة ، فلا يستطيع أحد ان يضله ويرده الى الكفر كما قال تعالى : فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فهذا هدى الايمان بالقلب · وأما قوله تعالى : وأما ثمود فهديناهم فهو هدى البيان لا هدى الإيمان · يعني أما ثمود فهديناهم ، أي بينا لهم سبيل الكفر والايمان على لسان نبيهم صالح صلى الله عليه فاستحبوا العما على الهدى · أي آثروا الضلال الذي كانوا عليه على الإيمان الذي بينه لهم ودعاهم اليه وتفسيرها بين يتضح بقوله سبحانه : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء · وكذا قوله

سبحانه وتعالى : انا هديناه السبيل اي بينا للانسان سبيل الخير وسبيل الشر ٠ وهذا الفصل يستغرق سبع صفحات ونصف صفحة

وأما الفصل العاشر وبه تتمة الكتاب ففي النسخة بياض نحو نصف صفحة وهو يحتوي على مافي القرآن المجيد من لغات القبائل العربية لغة عُمان ٠ ولغة حمير ٠ ولغة طيء ٠ ولغة أزد ٠ ولغة نهد ٠ ولغة هذيل ٠ ولغة بني نصر بن معاوية ٠ ولغة قيس ٠ ولغة ثقيف ٠ وما يتفق ولغات الأعاجم لغة النبط ٠ اللغة السريانية ٠ واللغة العبرانية ولغة السوادات ؟ ولغة الزنج ٠ ولغة الروم ٠ وختم هذا الفصل بقوله : وانما أنزل الله كتابه العزيز على نبيه صلى الله عليه وسلم وذكر هذه اللغات ليعلموا ان ذلك ليس من الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم لم يسافر الى بلاد أرباب هذه اللغات فتعلمها منهم فلما ذكرها عرف أن الله سبحانه هو الذي عرفه اياها وأنزلها اليه على قلبه كما قال سبحانه : نزل به الروح الأمين على قلبك الآية وقال سبحانه : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك

ومن هذا النموذج الذي استخلصناه تعرف قيمة الكتاب الذي لا أظن انها كتبت عليه آية الحجاب وارجو ان لا يكون ومؤلفه مجهولين عند من يعني بموضوعه القيم من أعلام الأمة

النبطية — جبل عامل :

سليمان ظاهر

اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المرويّ

عن الخليل بن أحمد

— ٢ —

٢ — كيف أسس بناء كتاب العين

إن استقصاء أثر الخليل في الكتاب يدعونا إلى دراسة مراحل تأليفه وكيفية وضعه ، وإذا فعلنا فإنا نرى اول عصر العباسيين حافلاً بتأليف الكتب الجامعة للعلوم : من الحديث يجمعه ابن جريج ، الى القراءات يدونها ابو عمرو بن العلاء ، الى الفقه بقيد مادته وأحكامه مالك والشافعي وابو يوسف ومحمد ، إلى التاريخ يبسطه الواقدي وتلاميذه ، إلى الشعر يجمعه السكري وغيره ، إلى النحو يفصل قواعده الخليل بن أحمد . كل ذلك دون أن نرى لغوياً يحفل بجمع ألفاظ اللغة العربية جمعاء ، وإذا كان اللغويون شرعوا يؤلفون في نوادر اللغة في أبوابها المختلفة وفي معاني اللغة في باب منها خاص[1]، وإذا كان أبو عمرو بن العلاء ما زال يلتقط عن الأعراب لغاتهم[2] والخليل بن احمد سماعاته عنهم[3] في أسفاط عديدة من الصحف ومن الكتب ، فأين كل هذا من حصر ألفاظ اللغة . زد إلى ذلك أن جمع اللغة على هذه الطريقة لا يستنفد مادتها أبداً ، فهنالك ألفاظ كثيرة لا تخطر ببال ، واللغة واسعة لا مقيد لها في الفكر والذاكرة وشعر الخليل بما حباه الله به من نظر وذكاء ومعرفة بالحاجة إلى تدوين اللغة أولاً وبوجوب البحث عن نهج واف بالحاجة ثانياً ، فأعمل فكره في ذلك وكد

(١) انظر الفصل الممتع الذي كتبه الاستاذ أحمد أمين بك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٤ — ٢٦٥

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٦ ، مرآة الجنان لليافعي ، حيدر آباد ١٣٣٧ ، ١ : ٣٢٥

(٣) جمع منها عشرين رطلاً كما يقول سيبويه في تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤

قريحته وناهيك بقريحته ، فقد كان فريداً في ذلك ، لم يبلغ شأوه أحد فيما روى المؤرخون .
وكان أسلوبه في الإبداع أن يرجع إلى اصول الأشياء الأولية وقوانينها العامة يستنتج منها تفاصيلها ، وكان يرى أن لكل علم ضابطاً ، إن شئت فقل حسابياً او لافقل أصولياً .

وبعدُ فهل يصعب على من كان هذا شأنه أن يرى أن ضابط اللغة والألفاظ هي الحروف تؤلفها بامتزاجها بعضها مع بعض ، او هل يعسر على من حصر بحور العرب وعروضها بضروب من المفاعيل عجيبة أن يجد — وهو يضع أبنية الأفعال والأسماء او مصادرها ويقسمها إلى ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية[1] — أن الألفاظ الثنائية المكونة من حرفين سهلة الحصر ، فما اسهل من أخذ كل حرف من حروف العربية وجمعه مع غيره من الحروف بتقديمه تارة وتأخيره أخرى ، فالباء مثلاً تؤلف مع التاء بت تب ومع الثاء بث و ثب ومع غير ذلك من الحروف شبيها بهذا البناء ، فحصر تراكيبها سهل إذن ، وقل ذلك عن تراكيب غيرها من الحروف حتى تبلغ ٢٨ حرفاً ، وإذا بالخليل يجد التراكيب الثنائية ثم يرى بنظره الثاقب ان الحصول على تراكيب الثلاثي يكون بأخذ مختلف ضروب تركيب حرف مع حرفين آخرين ثم مع أحدهما وحرف آخر وثالث الى آخر الحروف مع إعادة ذلك لكل حرف من الحروف دون الالتفات الى تركيبه مع الحرف ، الذي اخذت تراكيبه آنفاً . وتراكيب الرباعي ثم الخماسي أكثرعدداً ، إلا أن أسلوب الحصرالسابق يشملها .

يجد الخليل طريقه واضحاً فيسر به إلى تلميذه الليث بن المظفر . ويحدثنا بذلك ابن المظفر فيقول : «كنت اسير إلى الخليل بن أحمد ، فقال لي يوماً : لو أن إنساناً قصد وألّف ألف وباء وتاء وثاء على ما امثله لاستوعب في ذلك

(١) وقال الخليل بن أحمد : كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، فأما الثنائي فما كان على حرفين نحو : قد ، بل ، هل ، ومثلها من الأدوات ، قال والثلاثي نحو قولك : ضرب ، خرج ، مبني على ثلاثة أخرى والرباعي نحو قولك : دحرج ، هملج ، قرطس ، مبني على أربعة أحرف ... قال والخماسي نحو : سفرجل ، وشمرول وكنهبل وقبعثر وما اشبهها قال الليث قال الخليل : ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال اكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل او اسم فاعلم انها زائدة على البناء نحو : قرعبلانه إنما هو قرعبل ... »
التهذيب للأزهري ٣٩

جميع كلام العرب ، وتهيأ له اصل لا يخرج عنه شي منه بتة . قال فقلت له وكيف يكون ذلك ، قال : يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وانه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه . قال الليث فجعلت أستفهمه ويصف لي ، ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه في هذا المعنى اياماً ، ثم اعتل وحججت ، فما زلت مشفقاً عليه ، وخشيت ان يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي »[1] ولكن الخليل استمر بالتفكير باختراعه العظيم[2] ، واعمل فكره فيه ، فلم يمكنه ان يبتدئ من اول ا ب ت ث لأن الالف حرف معتل لا يبقى في الكلمة على شكله بل يتغير ويغيرها ، وما أفسد الابتداء بما يصعب ضبطه ولا تستوي طريقه « فلما فاته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً — وهو الباء — إلابجحة[3] » ؛ لأن رفع الألف أخل بترتيب الألفباء ، فلم يعد من حاجة لأخذ الباء . ثم لما اغفل ترتيب الألفباء جعل يتدبر اسلوباً لترتيب الحروف تتم منه الفائدة في العمل الذي أنشأه ، فانتقل به الفكر إلى مخارج الحروف مما كان اوعاه في دروسه في النحو ، فوجد انه إن رتب الحروف حسب مخارجها في الفم قربت الحروف المتشابهة من حيث طريقة نطقها بعضها من بعض ، فأصبحت الحاء قرب الهاء قرب الخاء قرب العين .

ولا بد أنه وجد لذلك فوائد جليلة ، نتخيل منها — مستأنسين بنصوص وردت عفواً في كتاب العين — ان الحروف المتشابهة بالمخارج لا يمتزج بعضها مع بعض في تكوين الألفاظ إلا نادراً[4] ، وهي إن ضرب بعضها ببعض أخرجت تراكيب مهملة لم يستعملها العرب ، وما أحسن ان يجتمع المهمل بعضه قرب بعض في الكتاب فلا يتفرق ، وما أحسن ان يقال في كتاب العين : « العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة اصلية الحروف لقرب مخرجيهما[5] » ثم يهمل

---

(١) الفهرست ٤٣ وارشاد الأريب ٦ : ٢٢٧ (٢) التهذيب للازهري ٣٩ ، لسان العرب ٩ : ٣٤٩ ، تاج العروس ٥ : ٢٦٨ (٣) المصادر السابقة (٤) ذكر ابن منظور في لسان العرب ١ : ٨ سر تقارب الحروف وما يكثر استعماله من الحروف وما يقل وهو بحث استقصاه واحسن فيه فانظره وفي سر صناعته الاعراب لابن جنى نسخة الظاهرية عام ١٥ آخر الكتاب « فصل في مذاهب العرب من مزج الحروف بعضها ببعض وما يجوز من ذلك وما يمتنع وما يحسن منه وما يقبح »
(٥) في التهذيب الأزهري ص ٥٠

بعدهما مباشرة العين مع الهاء ثم العين مع الفاء[١]» . وليس ذلك فحسب بل ان الراء واللام والنون والفاء والباء والميم وهي التي سميت ذُلقًا وشفوية « لما ذلقت وبذل بهن اللسان وسهلت في النطق كثرت في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها او من بعضها ، فإن ورد عليك خماسي معرى من الحروف الذلق او الشفوية فاعلم انه مولد وليس من صحيح كلام العرب[٢]» «أما الرباعي المنبسط فان الجمهور الأكثر منه لا يعرى من بعض الحروف الذلق » « ومهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة او كليهما ومن السين والدال او احديهما[٣]» ويبدو من ذلك واضحًا ان ضروب الحروف بعضها ببعض في الرباعي والخماسي مهمل إلا ما دخل فيه الحروف الذلق والشفوية وبذلك فمهمل الرباعي والخماسي يأتي متقاربًا في الكتاب بعد ترتيب الحروف على مخارجها . ولهذا الترتيب فائدة أخرى جليلة ، وهي أن الحروف المتشابهة قد تحل الواحدة منها مكان الأخرى في كلمة واحدة دون ان يتغير معناها ، وذلك مايسمى بالإبدال . وهكذا يفهمنا الخليل أن كل صاد تسبق القاف إن شئت جعلتها سينًا لا تبالي متصلة كانت بالقاف او منفصلة بعد ان تكون كلمة واحدة[٤] .

وجد الخليل هذه الفوائد التي تجعل ترتيب الكتاب علميًا منطقيًا سهلاً قريبًا من الحفظ لا تتداخل فيه الأشياء وتمتزج دون صلة أو تشابه ؛ فرغب في ترتيب الحروف على المخارج ، فأقبل على الحروف ، ووضع مخارجها ، وألفها تأليفًا يتفق مع غاية الكتاب ونهجه وما يتوخاه منه « فنظر إلى الحروف كلها ؛ فوجد مخرج الكلام كله من الحلق ، فصير اولاها بالابتداء به ادخلها في الحلق . وكان ذوقه اياها أنه كان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بالألف ثم أظهر الحرف اب ات اج اخ . . . فوجد العين أقصاها في الحلق

(١) في التهذيب للازهري ص ٥٠ (٢) عن الخليل في التهذيب ص ٤١

(٣) التهذيب ٤٢ وعن غير ابن المظفر قال الخليل : « وأما المصمته فإنها تسعة عشر حرفاً صحيحاً . . . وإذا عريت من حروف الذلاقة قلت في البنا فلست واجداً في جميع كلام العرب خماسياً بناؤه بالحروف المصمتة خاصة ولا كلاماً رباعياً كذلك غير المسينة » التهذيب ٤٧

(٤) من كتاب العين ص ١٠٥ عن دروس الاستاذ مارسيه ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٦

وأدخلها فجعل أول الكتاب العين ، ثم ما قرب مخرجه منها بعد العين الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخر الحروف[1] ... وهذا تأليفه : ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي[2] »

ويجعل بعض اللغويين من هذا الترتيب المخالف لترتيب البصريين سبيلاً للطعن في الكتاب وفي نسبته إلى الخليل شيخ البصريين : فيقول المفضل بن سلمة الكوفي (توفي نحو ٢٥٠) : « ذكر صاحب العين أنه بدأ كتابه بحرف العين لأنها أقصى الحروف مخرجاً ، والذي ذكره سيبويه ان الهمزة أقصى الحروف مخرجاً[3] » ؛ ونسي ابو طالب المفضل أن الخليل اسقط الهمزة لأنها حرف يعتريه التغيير . ثم يعترض الزبيدي على تقديم العين على الهاء ويرى ان ذلك ينقض نسبة الكتاب الى الخليل ، ولكن الليث ليس الوحيد الذي نقل هذا الترتيب عن الخليل لنشك في نسبته اياه للخليل بل نقله غيره عنه بحذافيره[4] زد إلى ذلك ان محمد بن احمد بن إبراهيم النحوي البصري (— ٢٩٩) يروي عن الخليل نصاً يعتذر فيه عن عدم الابتداء بالهاء حيث يقول : « انه لم يبدأ بالهاء لأنها مهموسة خفيفة لا صوت لها ... وليس العلم بتقديم شيء على شيء لأنـه كله مما يحتاج إلى معرفته ... وأولاها

---

(١) في التهذيب ٣٩ — ٤٠ ولسان العرب ٩ : ٣٤٩ تاج العروس ٥ : ٢٦٨

(٢) تهذيب ٤٠ وذكر الازهري في محل آخر ص ٤٤ — ٤٥ ولسان العرب ١ : ٧ احياز ومدارج الحروف قالا قال الخليل بن احمد « اقصى الحروف كلها العين وارفع منها الحاء ولولا بحة في الحاء لاشبهت العين لقرب مخرج الحاء من مخرج العين ثم الهاء ولولا هتة في الهاء وقال همة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء فهذه الثلاثة في حيز واحد ، ثم الخاء والغين في حيز واحد ثم القاف والكاف في حيز واحد ثم الجيم والشين والضاد ثلاثة في حيز واحد ثم الصاد والسين والزاي ثلاثة في حيز واحد ثم الفاء والباء والميم ثلاثة في حيز واحد ثم الواو والياء والألف ثلاثة في الهواء ولم يكن لها حيز تنسب إلى غيره » وقد وضع ابو الفرج بن عبد الله بن دلان المعافري الجزيري ترتيب حروف الخليل في أبيات منظومة فانظرها في المزهر ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ والبلغة ١٦٠ وانظر عن ترتيب الحروف واحيازها بالتفصيل في التهذيب ٤١ و ٤٥ و ٤٧

(٣) في المزهر ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ ويستطرد المفضل قائلا « ولو قال بدأت بالعين لأنها اكثر الكلام واشد اختلاطاً بالحروف لكان اولى » . وكلامه هذا صحيح الا انـه ورد عن الخليل مايشابهه برواية ابن كيسان في المزهر ١ : ٤٦ (٤) كما ذكر ذلك الازهري في التهذيب ص ٤٧

بالتقديم اكثرها تصرفاً[1] » . ويرى الزبيدي ان ترتيب الخليل يختلف عن مذهب البصريين حتى « بتقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها[2] » . والحق أن هنالك اختلافاً ما في التقديم والتأخير بين ترتيب الخليل وترتيب سيبويه في كتابه الذي أخذ معظمه عن الخليل[3] ولكني أرى لهذا الاختلاف دواعي عملية اقتضاها تأليف الكتاب والسهولة المتوخاة منه ، فقد وردت الضاد في ترتيب سيبويه مع الحروف الذواقية ، ولم يدخلها الخليل فيها لأنها قليلة الاستعمال ، وقد قلنا إن الخليل قصد بالذولقية ما يدخل من الحروف المستعملة في الكلمة ليحسنها . وهكذا جعل الضاد مع الصاد ، وفي نطق الحرفين تقارب ؛ وقد وافقه على ذلك الفيلسوف ابن سينا في كتابه « أسباب حدوث الحروف » فجعل الضاد قبل الصاد[4] واختلاف آخر بين سيبويه والخليل في الياء ، فقد أوردها سيبوية مع الجيم والشين ، وعدها الخليل في آخر الحروف مع المعتلات لغاية عملية خالصة وهي إفراد المعتلات . وهذا هو كل الاختلاف الذي يجدر الانتباه إليه خاصة وتعليله ، اما ان يذكر سيبويه الزاي قبل السين ثم الصاد ، ويذكر الخليل الصاد قبل السين قبل الزاي فليس بالاختلاف الكبير ، فهي أحرف متقاربة متشابهة ، لا فارق كبير يميزها ، على أن ابن سينا وافق الخليل وخالف سيبويه في ذلك . وقل مثل ذلك في عد سيبويه (ل ن ر) والخليل (ر ن ل) ، ويظهر لي أن هذين الاختلافين الذين لا كبير شأن لهما[5] حدثا بعد أن تغير مكان الضاد في ترتيب الخليل . وكذلك فإن كان اختلاف بين سيبويه والخليل فليس ذلك « خطلاً واضطراباً » في كتاب العين كما يقول ابن جنى[6] ، وإنما هو نتيجة عملية من توخي السهولة والاحكام في التآليف .

(١) في المزهر ١ : ٤٦ (٢) المزهر ١ : ٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠

(٣) الكتاب ٢ : ٤٠٥ ويقول الاستاذ مارسيه إن ترتيب سيبويه في كتابه لم يأخذه عن الخليل ولم يذكر انه رواه عن الخليل وان ترتيب كتاب العين هو عمل الخليل (٤) طبعة القاهرة ، سنة ١٣٣٢ ص ٩ (٥) فان ابن جنى الذي يأخذ على كتاب العين ترتيبه ويقر ترتيب سيبويه لم ينج من مخالفته بتقديم او تأخير كهذا (سر صناعة الاعراب نسخة الظاهرية عام ١٥٠ ، و : ٢١٩)

(٦) النص السابق .

بعد أن وضع الخليل ترتيب الحروف على مخارجها بأسلوبه الذي ذكرناه انتقل منه إلى غايته الأصلية من كتابه ألا وهي حصر أبنية اللغة العربية وتمييز المستعمل من المهمل مما يتركب من ضرب الحروف بعضها ببعض[١]، ولنتخيل كيف فعل مستأنسين بنص من مقدمة كتاب العين[٢] : عمد إلى حصر أبنية الثنائي أولاً مبتدئاً بالعين يؤلفه مع الحرف الذي يتبعه وهو الحاء قائلاً : ان الحرفين لا يأتلفان فتركيبهما مهمل ؛ وكذلك العين مع الهاء والعين مع الخاء ثم مع الفاء[٣]. ثم يأخذ العين مع القاف ، فيستخرج من ذلك (عقّ ، قعّ) بتقديم العين تارة وتأخيرها أخرى . ثم يأخذ العين مع الكاف بتقديمها أولاً ثم بتأخيرها ثانياً ، وهكذا حتى ينتهي إلى آخر الحروف ويعود إلى الحرف التالي وهو الحاء فيركبها مع ما يليها ويغفل ما يسبقها لأنه فعل ذلك آنفاً . ويفعل ذلك بكل حرف حتى ينتهي إلى الألف — وهو الحرف الذي يسبق آخر حرف — فيضربه بآخر حرف فقط ضربين ، ومن ثم ينتقل إلى الأبنية الثلاثية فيضرب الحرفين الأولين (ع ، ح) بالحرف الثالث ثم بالرابع والخامس إلى آخر الحروف ، ثم يعمد إلى العين مع الخاء ويضربها بما يلي الخاء وهلم جرا .

ولفهم طريقته إلى تأليف حرف مع حرفين[٤] خذ مثلثاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً ، ولنفرض أن الحروف الثلاثة هي : (ض ، ر ، ب) اجمع الحرف الأول مع الثاني مع الثالث تحصل على (ضرب) ، ثم اجمعه مع الثالث والثاني تحصل على (ضبر) ، ثم اجمع الثاني مع الثالث والأول تحصل على (ربض) ، ثم اجمع الثاني مع الأول والثالث تحصل على (رضب) ، ثم خذ الثالث واضربه بالثاني والأول تحصل على (برض) ثم بالأول فالثاني تحصل على (بضر) : فتلك ستة أوجه . ولا شك أن هذه الطريقة

ر ض
ب

(١) ذكر احمد امين طريقة ذلك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٨ — ٢٦٩ ولخص تلك الطريقة ابن خلدون في المقدمة في باب اللغة ونقل عنه محمد حسن صديق خان في ابجد العلوم ٦١٤ — ٦١٥

(٢) في التهذيب ص ٤٥ (٣) في التهذيب للازهري ص ٥٠ وما يتبعها

(٤) تجد طريقة الشرح هذه في الجمهرة لابن دريد ٣ : ٥١٢ ونقلها عنه المزهر ١ : ٣٩ اما الحروف التي فرضناها فهي نفسها التي اخذها الخليل مثالا (تهذيب ٤٥)

تقتضي كما في الثنائي ان لا يضرب حرف من الحروف حين الوصول إليه بما يسبقه من الحروف . حتى إذا انتهى من الثلاثي أخذ الرباعي وابتدأ بالحروف الثلاثة الأول ، يضربها بالتتابع مع كل حرف من الحروف التي تليها . ولفهم طريقة تأليف ضروب الحروف الأربعة ارسم مربعاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً فإذا كانت الحروف الأربعة (ع ب ق ر) اضرب العين بالأوجه الستة التي تتكون من (ب ق ر) تحصل على عبقر ، عبرق ، عقرب ، عقبر ، عربق ، عرقب ، ثم اضرب الباء بالأوجه الستة التي تتكون من (ع ر ق) تحصل على بعقر ، بعرق ، بقرع ، بقعر ، برعق ، برقع . وافعل كذلك بالقاف ثم بالراء يكون مجموع ما تحصل عليه أربعة وعشرين وجهاً ، أكثرها مهمل . قال الخليل[1] « والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجهاً : وذلك أن حروفها ضربت وهي خمسة احرف في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون وجهاً » وحصر الخماسي كالثلاثي والرباعي ، الا انه يؤخذ فيه أربعة أحرف تضرب بما يتبعها من حروف العربية .

ع ب
ر ق

ولما انتهى الخليل من هذا الحساب والضرب كتب عنه الليث في أول كتابه : « هذا ما ألفه الخليل بن أحمد من حروف ا ب ت ث التي عليها مدار كلام العرب وألفاظها ، ولا يخرج شيء منها عنه أراد أن يعرف بذلك جميع ما تكلمت به العرب في أشعارها وأمثالها ، ولا يشذ عنه منها شيء[2] » فغاية الكتاب الأولى حصر الأبنية المستعملة والمهملة بطريقة حسابية لا تخطىء كما مر معنا .

ولم يفهم تلك الغاية كثيرون ممن رجعوا إلى كتابه فظنوا انه أراد أن يذكر في كتابه كل الألفاظ التي استعملها العرب لا الأبنية ، فأخذ عليه أحمد البشتي ان كتابه اشتمل على ضعفي كتاب الخليل ، ويهزأ الأزهري فيقول : « ولما قرأت هذا النص من كتاب البشتي استدللت به على عقله وقلة فطنته وضعف فهمه ، واستيقنت أنه لم يفهم من الخليل ما أراده ولم يفطن للذي قصده[3] » واتخذ ابن فارس من معنى ما ذكر الخليل طريقة لنفي الكلام عنه فقال : « فأما الكتاب

(١) في المهذب ٤٥ (٢) في تهذيب الازهري ص ٢٩ (٣) في المصدر السابق .

المنسوب إلي الخليل ومافي خاتمته من قوله : هذا آخر كلام العرب ، فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك [١] » وإذ قد فهمت ما أراد الخليل فليس ما يمس تقاه وورعه من هذا الكلام . بل إنك تفهم انه يستطيع ان يحسب عدد الأبنية التي أخذ العرب منها ألفاظهم ، وذلك ما فعل بطريقة رياضية لا تخطىء فقد عرف أن للثنائي وجهين ، وللثلاثي ستة أوجه ، وللرباعي أربعة وعشرين وجهاً ، وللخماسي مائة وعشرين وجهاً ؛ وعرف عدد حروف العربية فكان حساب عدد الأبنية التي تخرج من كل منها ممكناً ، وجمع الحاصل أسهل [٢] . وهاك عدد أبنية العرب المستعملة والمهملة بعد الحساب وإسقاط المكرر :

الثنائي	٧٥٦
الثلاثي	١٩٦٥٦
الرباعي	٤٩١٤٠٠
الخماسي	١١٧٩٣٦٠٠
المجموع	١٢٣٠٥٤١٢

ويتفق حسابنا هذا في جميع تفاصيله مع ماذكره حمزة الأصفهاني [٣] عن الخليل ، اللهم الا في الثلاثي ، فقد ذكر أن عدد ابنيته (١٩٦٥٠) . ولا شك ان هذا خطأ من الناسخين .

(يتبع) **يوسف العش**

(١) الصاحبي ١٨ (٢) ورد هذا الحساب والتعداد مروياً عن حمزة الأصفهاني عن الخليل في المزهر ١ : ٣٧ وبغية الوعاة ٢٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ وحسب هذا الحساب ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي في مختصر كتاب العين فيما نقله عنه المزهر ١ : ٣٧ . وورد الحساب أيضاً في الجمهرة لابن دريد ٣ : ٥١٢ . ونقل ذلك المزهر ١ : ٣٦ — ٣٧ وروى جرجي زيدان ذلك في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٤ ولكن هذه الحسابات تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً بيناً : فاذا ذكر الزبيدي ان مجموع المهمل والمستعمل من الأبنيه (٦٦٩٩٤٠٠) (وفي الأصل ٦٦٥٩٤٠٠ وهو غلط إن شئت فسمه مطبعياً) فان حمزة يذكر (١٢٣١٥٤١٢) كما في النسخة المطبوعة من البغية أو (١٢٣٠٥٤٠٦) كما يظهره حاصل جمع التفاصيل وما في المزهر واذا ذكر هذان المؤلفان ان ضروب الثلاثي (١٩٦٥٠) ذكر ابن دريد أن ضروبه (١٥٦٢٠) ولا شك في أن كلا منهم أغفل من الحروف مالم يغفله الآخر ومن المعتل او المكرر ماعده الآخر ، وبذلك ظهر الاختلاف فيما بينهم . ويجدر الإشارة أيضاً إلى ان خطأ الطابعين او النساخ يزيد الاختلاف بينهم إلى هذا الحد .

(٥) في المزهر ١ : ٣٧ وتعداده أقرب المصادر الى الصحة وفي بغية الوعاة ٢٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١

عشائر الشام

- ١ -

من الموضوعات التي أولع بها أدباء العربية قديماً وأطالوا البحث عنها والكتابة وقصر اخلافهم الحاضرون في ذلك موضوع عشائر الأعراب او البدو[1] وإذا كان بعض الفضلاء في العراق وفي مصر وفي جنوبي الشام « فلسطين وشرقي الأردن » ممن سنذكر أسماءهم قاموا اخيراً بقسط محمود من ذلك فإن امثالهم في شمالي الشام لم يحفلوا به حتى الآن ٠

على حين ان هؤلاء البدو هم امابين ظهرانينا اوعلى مقربة منا ، ولهم فوق صلات الجنس واللغة والدين والتاريخ التي تربطنا وإياهم مكانة في أمورنا الاقتصادية والقومية ٠ فكل سموننا واكثر لحومنا التي نأكلها والأصواف التي ننسجها والمطايا التي نركبها منهم ٠ وقسم كبير من سكان الحواضر عندنا كدمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجها على شيء كثير وعشرائه من هؤلاء البدو ٠

وقد كتب لي ان اتجول في املاك دولة الشام ، وهي على سيف البادية وجل فلاحيها وكل الضاربين في براريها من البدو ، وان اغشى منازل هؤلاء فانظر واسأل وادون واقارن ذلك بما اجده في الكتب العربية والافرنجية الباحثة عنهم حتى اجتمع لي طائفة من اخبارهم ٠ على انني اعترف بقلة مانهلت من هذا البحر ومادونت لصعوبة الاتصال بالبدو وعسرة استقراء الحقائق منهم مما يتيسر لرواد الافرنج ومستشرقيهم ولاسيما لعمال دوائر الانتداب منهم اكثر منا ٠ لأجل هذا فقد قصرت هذه العجالة على ذكر مقدمات وجيزة عن تقسيم عشائر البدو في عهدنا الى طبقات وعن تاريخهم القديم والحديث ثم وصفت البادية

---

(١) الأعراب بالفتح اهل البادية من العرب والواحد أعرابي بالفتح ايضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، وقيل من نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) ، وقد اصطلح الشاميون على تسمية الاعرابي بالبدوي وعلى تسمية الريفي بالفلاح ويجمعونه على فلاحين وفلاليح كما يجمعون العربي على عربان ٠

وخصائصها ، ثم انتقلت الى البحث الأصلي وهو : تعداد العشائر وتعريف منابتهم ومنازلهم وفرقهم ومبلغهم من العدد والقوة ، وتركت البحث عن عاداتهم وتقاليدهم واخبارهم الماضية والحاضرة الى فرصة اخرى .

ما أُلف عن البدو

من الباحثين عن أنساب البدو واحوالهم بين أُدباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفى في سنة ٣٢٨ في كتابه العقد الفريد ، وابي الفرج الاصفهاني المتوفى في سنة ٣٥٦ في كتابه الأغاني ، وابي عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه معجم ما استعجم ، وابن خلدون المتوفى في سنة ٨٠٨ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى العبر ، والقلقشندي المتوفى في سنة ٨٢١ في الجلد الرابع من صبح الأعشى ، وفي كتابه الثاني المسمى نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه ، وقيل ان في احد الأجزاء التي لم تطبع بعد من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده ، وقيل ايضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه « جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وإن كانت تشمل العصور والأماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ لكن ابحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الأرب للقلقشندي وترتيبها غير موف بالغرض ، والسيد شكري الالوسي في كتابه « بلوغ الأرب في احوال العرب » المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاث مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا واحسن الكتب العربية الحديثة كتاب « خمسة اعوام في شرقي الاردن » المطبوع في حريصا

(لبنان) سنة ١٣٤٥ للارشمندريت بولس سليمان بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عهدنا وقضائهم وديانتهم وعشائرهم ، وكتاب « القضاء بين البدو » المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ للسيد عارف العارف قائم مقام بئر السبع بسط فيه اخبار بدو بئر السبع في عهدنا ايضاً وطبائعهم وعاداتهم في القضاء والقتل والسرقة والمرأة والحيوان والرحيل والتجارة والطب والعقيدة ، وكتاب « تاريخ شرقي الأردن وقبائلها » للفتنت كولونل ج. بيك الانكليزي وقد عربه السيد بهاء الدين طوقان وطبعه في القدس سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة طبع في مصر سنة ١٣٥٢ ، وكتاب « قبائل العرب في مصر » لأحمد لطفي السيد طبع في مصر سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « عشائر العراق » للسيد عباس العزاوي المطبوع في بغداد سنة ١٣٥٦

ووجدت من الافرنج الباحثين عن البدو الرحالة بركهارت السويسري[١] صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ هـ وعد في كتابه ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز وأحصى نفوسها وذكر أطوارها وأساليب معيشتها ومناطق رعيها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . والمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي[٢] كتب بالألمانية عن بادية العرب بحث فيها عن عشائر عنزة ولاسيما عن الرولة وتقاليدهم ، وكان أقام بينهم سنيناً عديدة وكانوا يدعونه الشيخ موسى الرويلي وللسائحة الانكليزية اللادي آن . بلونت[٣] كتاب في مجلدين عن « عشائر البادية الفراتية » طبع في لندن سنة ١٨٧٩ كما أن لها كتاباً آخر اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم الى الافرنسية ، وللكابتين رينو[٤] الافرنسي رسالة صغيرة عن « بدو البلاد التابعة حكومة دمشق » طبعت في سنة ١٩٢١ ولكومندان مولر[٥] كتاب اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٩٣١ ، وهذان الضابطان كانا من مدراء الإدارة الافرنسية الخاصة

(1) Jean - Louis Burkhardt, Voyages en Arabie. (2) Aloes Musil, Arabia deserta, 1927. (3) Lady Anne Blunt, Bédouin tribes of the Euphrates, Murray, 1879. (4) Capitain Renaud, Les Bédouins de mouvence du gouvernement de Damas, 1921 (5) Victor Muller, En Syrie avec les Bédouins, 1931

بمراقبة العشائر . وثمة كتابان افرنسيان للأب جوسن الدومينيكي[1] احدهما عن عادات البدو في بلاد موآب وثانيهما عن عشيرة الفقرا احدى العشائر الكبيرة في تلك الأنحاء ، وللمسيو آلبر بوشمان[2] كتاب اسمه « امتعة المعيشة البدوية » فيه وصف ألبسة البدو وفرشهم وأوانيهم ومضاربهم . واحدث الكتب الاوربية وأكملها عن عشائر الشام هو ما نشره أخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم[3] المطبوع في ليبزيغ سنة ١٩٣٩ ، ولعل هنالك كتباً أخرى لم أطلع عليها فاكتفيت بذكر ماعلمت .

طبقات البدو

لنا أن نقسم بدو زماننا في شمالي الشام حسب عراقتهم بالبداوة واطوارها وبعدهم عن عن الحضارة ومنازلها الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى : أعراب البادية او البدو الأقحاح ويوصفون في اصطلاح الافرنج بالبدو الاصليين او بالبدو الرحل ، وهم اهل الوبر ، أصحاب المضارب او الخيام او بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والإبل لمعاشهم . فالإبل مراكبهم التي يحملون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم ويأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها ويكتسون وينسجون بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبايعات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناءهم ومبعث هناءهم ، كما انهم سبب معاشها ووجودها ، لا يدرون أهي خلقت لهم وقبلهم ام هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة عنها سوى ضريبة تدعى « الودي » ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وارياف الحاضرة فراراً من حمارة القيظ تارةً وصبارة البرد اخرى وارتياداً لمواقع القطر وانتجاعاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للابل فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب الكلأ وابتغاء المياه والدفء في اماكن اخرى فلا يزالون في حل وترحال يقطعون

(1) P. Jaussen, Coutumes des Arabes en pays de Moab. Coutumes des Fuquaras, 1920. (2) Alber Bouchman, Les meubles de la vie Bédouine. (3) Die Beduinen, Max Vonoppenheim . Leipzig. 1939

٥٠٠ و ٦٠٠ واحياناً ٧٠٠ — ٨٠٠ كيلو متر فيصلون في الشرق الى بوادي العراق او في الجنوب الى فيافي نجد ثم يعودون الى مشارف الشام او الى ما يقاربها ٠

وهواهم في البادية وفيافيها الشاسعة وآفاقها الواسعة وحريتها المطلقة ووحشتها الرهيبة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة ولا يزالون يمدحون البوادي وشظف عيشها في منظوم كلامهم ومنثوره ٠ وهم يحتقرون اهل الطبقة الثانية ويدعونهم « رعية » و « شاوية » او « شوايا » لاقتنائهم — الشياه والمعز ، يعدّون ذلك من اكبر العار اذ تمنعهم عن الايغال في البيداء ومدافعة الاعداء — ويمتهنون اهل الحضر والقرى ويدعونهم « الفلاليح » لانهم ساكنون بيوت الحجر ومعتادون على الرفه وحماية الدولة ، ومتكلون على الحرث والكرث وهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتفردون في الصحراء وثقتهم بأنفسهم كثيرة حتى صار البأس لهم خلقاً ٠ ولذلك كان أكثر البدو توغلاً في القفر اشدهم بأساً واجرأهم على تحمل المشاق ٠وهؤلاء البدو الشعث الغبر الجفاة لا يغشون القرى والمدن الا للضرورة في سني المحل والظمأ او لابتياع حاجاتهم وبيع الذكور من إبلهم ، وبيع اصوافهم ، وهم لجفوتهم وقسوتهم وجهلهم حق الغير في تعبه ونشبه كثيراً ما يلحق اهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات من افسادهم السابلة ورعيهم الزرع مخضراً او انتهابه قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ومسامحة ذوي السلطان فرصة ٠ وهؤلاء في بلادنا عشائر شمر في بوادي الجزيرة الفراتية ، وعشائر عنزة في بوادي الشامية ٠ وسيأتي ذكر فروع كل منها ٠

الطبقة الثانية : اعراب الحاضرة الذين يسمون في انحاء حلب وحماة وحمص ودمشق « عربان الديرة » او « الرعية » وفي انحاء دير الزور والجزيرة « شوايا » ٠ وهؤلاء ايضاً اهل وبر وخيل ، لكنهم قسمان : قسم لا يرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم والمعز فقط ٠ وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لأهل مدن حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشار كونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمنها التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروةً غير يسيرة ٠ ويسمي الافرنج

هذا القسم من الأعراب بالغنامة او النصف رحل او النصف حضر . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر دون غيرها ليتمكنوا من الظعن وراء الماشية . والقسم الثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والارضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي أعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو ينهبها او مرض يهلكها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع اما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها او لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل وعيث البادية وغير ذلك ، ولأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال . وهم بعد ان ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف الى البادية انتجاعاً لمرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في أواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في أنحاء حلب او السبابيط المبنية من أعواد الطرفاء وأغصان عرق السوس في أنحاء سقي الفرات والخابور وغيرهما من انهار الجزيرة . وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من القسم الاول او الثاني وحدهما او من القسمين كليهما .

وسبب تسمية اهل هذه الطبقة بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما اهل القسم الثاني فيها ، ولأنهم حينما يظعنون في الشتاء لا يوغلون في البادية أكثر من ٣٠٠ — ٤٠٠ كيلومتر مراعاةً لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب حمص وحماة مثلاً لا يتعدون الخبرات والقعرة « شرقي تدمر » وكثيراً ما يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما ان أعراب سقي الفرات يشتون حول جبل البشري ، واعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول وحول جبل التنف ، واعراب الجزيرة الفراتية حول جبل عبد العزيز .

واهل هذه الطبقة يشبهون في الجملة الطبقة الاولى في طباع البداوة والجلفة والشعوثة وانتهاك حمى الطبقة الثالثة وفلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة . ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة اهل الطبقة الاولى فلا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب اي لا يجار الملتجىء اليهم ، بل لما كانوا « رعية » و « شوايا » يؤكلون

ولا يأكلون . فكأن الطبقة الاولى كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الاوربيين تعامل بجميع قواعد حقوق الدول ، والطبقة الثانية كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها ، والطبقة الثالثة كالدول التي لم يصادق على استقلالها او كالامارات المحمية . ويختلفون ايضاً بأن لهم استعداداً بارزاً للتحضر فقد صار بعضهم اهل مدر اي اصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، ولآخرين منهم علائق جمة مع تجار الماشية او التجار السوقة في المدن والحواضر يشار كونهم في تربية الغنم او زراعة الحبوب ، وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع والخراج عن الأرضين .

والطبقة الثالثة أيضاً قسمان ، قسم يشبه أهل القسم الاول الذي ذكرناه في بحث الطبقة الثانية بأن فيه أهل ضرع ووبر يربون الماشية ويقطنون بيوت الشعر ويرتزقون من مشاركة صغار السوقة في المدن او الزراع في القرى ومراكز الاقضية ويدعون « شكارة » بتشديد الكاف على أنهم يختلفون عن أولئك بأنهم لا يؤلفون عشائر ذات شأن بل أحياءً صغيرة منفردة ضعيفة الحول والطول ، قليلة العدد والقوة ، وضيعة الارومة والمكانة ، وبأنهم لا يظعنون الى البادية بل يتنقلون حسب الفصول ووجود المرعى في الهضاب والاودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها او حدود مواطن شركائهم . ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام في ساحلها وداخلها من هؤلاء الاعراب الرعاة . وقسم فيه الاعراب الفلاحون « الفلاليح » الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات وايقنوا ان العيش الثابت خير من المتنقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته فعمروا الخرب الداثرة ، وهجروا بيوت الشعر الا قليلا وصاروا أهل مدر اي انهم قطنوا بيوت الحجر او القباب وتوفروا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية .

من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في قرى « املاك الدولة » في أقضية منبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي أنحاء ادلب

ومسرمين و كورة العلا وفى أقضية حماه وسلمية وحمص والنبك والقنيطرة والزوية وحوران وجبل الدروز وغوطة دمشق ومرجها ... ممن تعددت اسماؤهم واتضعت أنسابهم وأحسابهم ·
وأهل هذه الطبقة أيضاً وان كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشار كون أهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها لكنهم مابرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البادية كالخشونة والرعونة فهم يتمسكون بالقشافة المدقعة والجهالة المطبقة ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولاسيما في الغرس ·

(يتبع) وصفي زكريا

مخطوطات ومطبوعات

الامير جمال الدين عبد الله التنوخي

تأليف تلميذه الشيخ ابي علي مرعي البستاني وآداب الشيخ الفاضل الشيخ محمد ابي هلال
تأليف الشيخ ابي علي عبد الملك بن الحاج يوسف الحلبي الشافعي

أجاد ناشر هذه الرسالة الاستاذ عجاج نويهض مترجم « حاضر العالم الاسلامي » وغيره من الكتب النافعة بنشرها على طريقة عصرية مقبولة وبإتباعه لها بلمحة تاريخية مطولة تشتمل على ترجمة « للأمير سعيد » و « الشيخ الفاضل » وصفوة تاريخ الأمراء آل تنوخ في لبنان من اولهم الى انقطاع سلالتهم قبل منتصف القرن الحادي عشر ووصف امارتهم وامارة آل معن حتى نهاية الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير .

وفي الحق ! أن الشخصيتين اللتين يدور عليهما الكتاب وهما : الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي دفين قرية عبيه ، والأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير دفين الآستانة من أهم الشخصيات التي يفاخر بها العرب والمسلمون في الدين والسياسة . فالامير السيد كله خير وتقوى كان لأمته خير مثال يقتدي به المقتدون والامير فخر الدين كان نابغة العرب في العصور الأخيرة بما رزقه من طبع سياسي واداري برّاق .

وقد أعجبني رأي الاستاذ نويهض في تعليل اخفاق الامير فخر الدين اذ قال : (ص ه ٦١) : « ولو قُيِّض لحكم اقطاعي ، مهما كان ضخماً مترامي الأطراف ، ان يعيش ويبقى في العصور الأخيرة ، في وجه نظام الدولة الحديث ، في الشرق أو في الغرب ، لكان حكم فخر الدين الثاني أولى الأحكام الاقطاعية بأن يعيش ، ولو كان مقدوراً للبناء المشمخر الذي رفعه سليل ربيعة بين الكرمل وانطاكية بدهائه وقوة يمينه ، ان تتلاقى حنايا قناطره فتتماسك جوانبه ويشد بعضه بعضاً فيقوي على الأعاصير وترتد عنه الصدمات خاسرة ، ويرقى به صاحبه من دور الاقطاع الكبير الى الملكية الثابتة القرار ، مع تكثيف الجيش وتقوية آلات الحرب وتنمية موارد الثروة العامة ، ونشر العلم الذي كان ينتقل وقتئذ من أوضاعه القديمة إلى أوضاعه الجديدة ، لأمكن فخر الدين ان

يشيد للعرب في سورية الغربية ملكاً عربياً متين الجوانب وفيه اليوم ملايين من السكان . ولكن اذا كان بنو ربيعة الاولون في الجزيرة لم يطيقوا ابوباً جد المعنيين وهو واحد منهم ، لبأسه وكثرة غارته وإيقاعه ، وما زالوا به حتى أكرهوه على الرحيل فرحل ، أتطيق الدولة التركية العثمانية حفيد معن وهو يؤسس امارة قد تفضي الى ملك في بلاد سورية ، فيقطع من سلطنتهم ويهدم منها ليبني له مملكة ؟ »

وقال المؤلف في تأثير الشعر في العرب وتغاليهم في روايته : « الشعر عنصر من عناصر الغذاء في حياة الامارات الاقطاعية عند كل الامم المتحضرة ، يماشي الفروسية ، وتنعكس عليه ابهتها ، ويكون وشياً لطرازها ، وشدو غنائها ، هذا على الجملة ، وأما كون نزعة الشعر في الاصل جزءاً من طبيعة العربي على الخصوص ، وهي من غرائزه النامية ، جاهلية واسلاماً ، بادية وحاضرة ، فلا يحتاج الى دليل . قل — اذا كانت الفروسية عند العرب ، وهي عندهم على غير انقطاع ، كان الشعر ، وكان منشده وسامعه وراويه ، وهذا في كل الاقاليم التي سكنها العرب قديماً وحديثاً ، وكما كنا ولا نبرح نطرب لذكر المنحني والعقيق واللوي والرياض التي قال ياقوت انه كان في الجزيرة لا اقل من مئة وستة وثلاثين موضعاً يسمى بالروضة او الروضتين ، فكذلك نطرب لترنم الشعراء بذكر المستجد من الاسماء للاماكن التي نزلها العرب بعد الفتوح في سواحل الشام وثغور البحر الابيض وجبال بيروت ومقاطعات الغرب وجبل بني معن ، وكما يشتاقك وصف مراتع الظباء في نجد والحجاز وأوديتهما المختلفة ، فكذلك يجتذبك ذكر صنين وجبل الشيخ ، ووصف تساقط الثلوج عليهما ، وكما كان الشعراء يفدون على الملوك والامراء في الجزيرة والحيرة وديار غسان قبل الإسلام فكذلك نراهم عند التنوخيين اللخميين في لبنان . وسنظل نقرأ الشعر العربي اينما كان العرب ونزلوا ، وفي اي جبل او سهل حلوا . »

وفي بعض هذه الرسائل القديمة كتبت الصاد بالسين على عادة القوم في كتبهم الروحية فردّ عليها المؤلف رداً لطيفاً بقوله : « وردت كلمة « الصادق » و « التصديق » في سيرة الامير السيد بالسين بدل الصاد احياناً . وصوابها بالصاد ، ولم يرد في العربية فعل (صدق) بالسين . » والمأمول مع الزمن ان تزول السين من هذا الرسم وتبقى الصاد ليتوحد الاملاء كما تتوحد الآراء .

محمد كرد علي

تذكرة الشعراء

او

شعراء بغداد وكتابها في أيام داود باشا والي بغداد

لعبد القادر الخطيبي الشهراباني

في هذا الكتاب تراجم مختصرة لثلاثة وخمسين رجلاً (ليس فيهم شاعر يذكر) من أهل النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة في بغداد . عني بنشره ووضع فهارسه العلامة اللغوي الاب انستاس ماري الكرملي . والكتاب = على مافيه من لغة رديئة وأسلوب عامي وخطة مضطربة = يصور لنا نموذجاً من ثقافة ذلك العصر . ولذلك تولى الاستاذ الكرملي نشره كما هو وأضاف اليه فهارس ومعجما للألفاظ العامية والأعجمية مع خاتمة دلــ بها على فائدة الكتاب .

مراثي مسعود

هي مجموعة الكلمات والقصائد التي أُلقيت في حفلة تأبين محمد مسعود بك احد أعلام النهضة الأدبية في مصر . كان عالماً مدققاً واديباً كبيراً وصحافياً مفنناً ومؤلفاً موفقاً معروفاً بحسن الخلق والاستقامة . وقد تولى الذين ابنوه شرح هذه النواحي ونوهوا بمكارم اخلاقه وعظيم مآثره رحمه الله واحسن عزاء الامة .

آراء وأنباء

استدراك

أشير هنا — مستدركا سهواً في ص ٣٧٥ سطر ٧ من المجلد السادس عشر لهذه المجلة — الى ان كلمة (شعوذة) صحيحة فصيحة مثل (شعبذة) . وأن سنة ٢٥٢ (ص ٣٣٥ سطر ١٧) صوابها : ٢٩٢

الافغاني

وفاة علماء عاملين

فقدت الامة ثلاثة من أعلام العلماء العاملين : الشيخ محمد الحسيني صاحب التفسير والشيخ اسماعيل الحافظ مصحح الجامع الصحيح لمسلم ، وهما من علماء طرابلس الشام . اما الثالث فالشيخ عبد الوهاب النجار من علماء مصر وصاحب كتاب قصص الانبياء وغيره . رحمهم الله رحمة واسعة وعزى الفضائل والعلوم فيهم .